بقلم

جبران ابراهيم الخوري

نوابغ الأدب

– ابرهيم الخوري –
« المعروف باسم جبران »

نوابغ الأدب

– هو حلقة إلماسيّة من سلسلة ذهبية . وهي دراسات أدبيـة تاريخية كانت تلقى من عـلى منبر التدريس عـلى ضوء منهاج البكالوريا اللبنانية طبقاً لقرار وزارة التربية الوطنية الجليلة –

اهداء الكتاب

الى الطالب النبيه النجيب ، الى الشاب الحرّ الجريء الأديب ، الى النشء الحديث الواعي اللبيب ، الى العبقرية الخالدة المحلقة ما وراء ذلك الملاء اللامتناهي ، المرفرفة بجناحيها النارّيين في هيكل الروح العلوي ، وحول عرش القلوب المفداة ، ، ،
أقدّم كتابي هذا

المؤلف

جبران خليل جبران

(١٨٨٣ – ١٩٣٢ م)



نشاته

ان من يطرق سمعه هذا الاسم الذي طبّق الخافقين ، بعبقريته الملهمة اللاّمضاهية ، وفيلسوف الفلاسفة بدماغه المفكّر العظيم اللاّند حيث تخشع له العباقرة إجلالاً لموحيات دماغه الكبير الذي يقف اليراع عاجزاً نابياً في حلبة التعبير عنه ، أمام صاحب « النبي » الملهم الذي بنظراته الساحرة الثاقبة حيث تنفذ بكهربائيتها الاّخاذة الناعمة الى اعماق القلوب ، فتتملكها بحنانها ولطفهـا ، فتتعشّق عندئذ هذا « النبي » العبقري الخالدبتعاليمه الجديدة السديدة، ومبادئه الملهمة ، ورسالته الرائعة الرامية جميعها بخواطره الصائبة الى تسديد مبادىء الانسانية الحقة ، وتوطيد شريعة القلوب الوادعـة النابضة بالحب الانساني الأخوي المتبادل في سبيل إقامة هيكل إخاء وبناء مذبح المحبة البشرية الذي تضيء عليه القلوب المُحِبّة المخلصة في دينها المستقيم وشريعتها المقدسة – بهذا بشّر صاحب « النبي » – في انجيله هذا الذي اشرق منه نور رسالته الهاديء، أولئـك السذج الذين غللتهم قيود الاستعمار ، وكبّلتهم باغلالها البغيضة المرهقة، وأثقلت أعناقهم بكابوسها تلك التعاليم الاقطاعية الممقوتة،والمبادىء

البشرية البالية. فجاء رسولنا الأمين الوديع هذا، فقام عليه رؤساء الاستعمار، وأصلوه حرباً سجالاً، خشية إبادة سلطانهم ودكّ عرش صولتهم على غرار سلفائهم الذين صلبوا من قبل رسول السلام الحقيقي، وقد خنقوا صوت الحق الداوي في صحرائهم المجدبة، يعدُّ طريق المحبّة، ويمهّد سبل الوداعة والاتحاد والراحة يهديهم الى ميناء السلام. فأعدّوا له خشبة العار والاستهزاء والنقمة، لينقعوا غلُ حقدهم، ويرتووا من دمه البريء -- بهذا الغلُ والغضب الخانق، ثار ثائرهم المضطرم غيظاً وغضباً وقامت قيامتهم على رسول المحبّة، وزعيم البشارة الجديدة الرامي الى السلام، يرمونه بالكفر والالحاد، وينعتونه بالمسيح الدجال جـــاءَ ينقض شرائعهم المنزلة، ويهدم هياكلهم المقدسة، ويدنس محاريبهم العلوية الذين يضحون عليها «لآلهتهم» بخور رغائبهم، واميال قلوبهم إرضاء لجمالها وقدس أقداسها -- وها انهم قد عادوا فيما بعد، يقدّسون من كان بالأمس كافراً ملحداً هداماً لرسالتهم وشرائعهم وتعاليمهم البشرية وتقاليدهم الجامعيّة ويرشقونه بالحرم النافذ الهابط من عل.. كما يدّعون ويزعمون ... والويل لمن يخرج على طاعته الشاهانية واحكامه المنزلة، فانه في عرفهم كافر يكدسون على هامته نار غضبهم وحنقهم وسخطهم..

هذه ديباجة شفّافة وضعناها أمام ناظريك ونصب عينيك يا قارئي النشيط العزيز عن صاحب «النبي» الذي جاء برسالته السامية فاتحاً طريقاً سوياً ممهداً داحضاً أقوالهم وتعاليمهم الذين زيّفوا رسالة الناصري الصحيحة، وأقاموا هياكل لأصنام أميالهم البشرية، وأسدلوا ستار سلطانهم الكثيف الطاغي أمام بصائر أولئك الودعاء الانقياء المنقادين بطاعتهم العمياء لجور جبروتهم كالشاة الى الذبح وهماً وخشية ان حـــادوا أو زاحوا عن تعاليم أسيادهم، فيكون نصيبهم وآخرتهم العذاب الأليم، في تلك المواقد الأبديّة ...

أَجل — هذا هو جبران الأمس ، وجبران اليوم قد وضعناه أَمامك أيها الدارس النجيب على بساط البحث في هذه العجالة للتدقيق في رسالته السامية الواعية ، وما قد أَبقاه من تراث مجيد ، وفلسفة دامغة وآثار نفيسة ثمينة ليحلي بها العالم الأدبي الراقي جيده ، نابذاً التقاليد البالية ، والمباديء الرجعيّة مزيحاً من أمام عينيه نقاب الجهل الرث ، ليغرف من أوقيانوس صاحب « النبي » مرتوياً من مناهله الكوثرية مغذّياً دماغه بهذا الغذاء الروحاني الملهم ، مشبعاً عقله من الأدب الجبراني الثاقب متخذّاً لحياته قاعدة مثلى ودروساً عليا قيّمة يسير على نهجها السوي الى جادّة الصواب عاملًا نشيطاً ساهراً يقظاً برسالة « النبي » مسدّداً خطواته في بشارة الحق التي بشّر بها « جبران » وهدي إنجيله — كما يسمّونه أَبناء الغرب العلماء الأعلام اذ قد اتخّذوه منارة هدي لهم ، ومشعل حق لِمَا ضمّ « النبي » بين دفّتية من التعاليم الصحيحة والمبادىء المستقيمة ، والاهداف العادلة ، والخطط السديدة ، والاخلاص والمحبة والتضحية وروح العدالة في سبيل الامان والسلام والتسامح والوداعة . وكما جاء عنه هذه العبارة الفلسفيّة البسيطة بمظهرها : انْ شئتَ أن تقرأ جبران ، فعليك أن تفكّر ، وتفكّر ، وتفكّر . . والاّ فلا تقرأ جبران لذا انّ الغربيّين خاصّة الاميركان كما اعلم جيداً ، اذا شئت أن تحدثهم عن « جبراننا » دون أن تذكر لهم في حديثك «النبي جبران» فكأنك تحدّثهم عن شخص مجهول ، أو كمن يهرف بما لا يعرف . فيجيبونك لا ندري بماذا تتكلّم — أمّا اذا قلت لهم أَما تعرفون جبران ؟ فيستدركون على الفور قائلين : «قل النبي جبران» تأمل يا صاح ، ما منزلة جبران في عرفنا وعندنا نحن اللبنانيين . وما منزلة — جبران — العظيمة لدى الاجانب ؟ — عفواً يا قارئي العزيز ، أراني أَطلت عليك الدرس في مقدمة التعريف عن صاحب « النبي » ولعلك تقول : لقد

تسّرب إليّ الملل وأريد أن أَدخل توّاً في صلب الموضوع والبحث عن حياة ونشأة صاحب — النبي — بطريقة موجزة كما يتطلب منّا منهاجنا ويقتضيه، وليس نحن الآن في قاعة محاضرة عنه ... أجل اني أستميحك عفواً وعذراً والكريم من عذر وعفا. من يا ترى اذا شاء الخوض في الاوقيانوس الجبراني الشاسع لينتزع درره الغوالي مرّصعاً بها جيده فيأبى ? ولعلك تستدركني وتستدرجني بهذه العبارة ، واذا كان الشخص لا يحسن الخوض في هذا الاوقيانوس ، ما العمل ? فانك يجب أَن تتعلم فطالب العلم لا يأنف قط من كثرة زيادة رأس ماله وتوسيع نطاق ومدارك عقله . وخاصة كاتب ومدبج هـذا الدرس الحقير الذي طالما قد تشبّع من تعاليم « صاحب النبي » وسبر غوره ، وغاص الى أعماق لججه ، واستنار بهديهِ ، وحمل مشعل نبوغه مبشراً بفلسفته وعبقريته ، محطما قيود الاستعمار البغيض ، مزيحاً عن عنقه نير أولئك الاقطاعيّين . . . واتخذّ لنفسه مضيفاً على اسمه اسم (جبران) كما يعرفونه — إذن ان لم أخض ولو قليلًا اكون غامط النعمة ، وأنىّ لمثلي أن يخوض في هذا المعترك الشاسع ، وجوادي هزيل يكبو في هذا الميدان — ولقد تتلمذت لجبران مقتفياً آثاره مسدداً خطواتي في سبيل حريته المقدسة ناهجاً نهج تعاليمه السديدة ، ومديناً بدينه القويم ولو رماني اولئك الاقطاعيون بالكفر نظير صاحب النبي ...

أجل — كما اعلم جيداً ، وكما تعلمت وتشبعت حينما كنت طالباً يافعاً عـلى مقاعـد مدارسهم بتلك المبادىء والتعاليم المغايرة والمناقضة للمبادىء الحرة الصادقة الانسانية الواعية — لكل من لا يدين بتعاليمهم تلك فهو وثني عندهم — ولكنني فيما بعد عندما خضتُ ميدان العالم وتشبعتُ جيداً عارفاً محّصاً مدققاً مميزاً الغث من السمين مندمجاً بالرجال الأدباء العلماء الكبار

المشهود لهم بالوعي والعلم والتعمّق بالآداب العالية الناضجة وعلى غرارهم . نبذتُ نبذ النواة جميع مبادئهم المعوجّة ، وتعاليمهم المناقضة للاصلاح البشريّ خلافاً لما يبطنون .

فها أنا الآن في عرفهم كافر ملحد . . لانّ من لا يدين بدينهم ، . . . ويسير على نهج مبادئهم البائدة وشرائعهم البشرية ، ولا يخضع خضوعاً تاماً أعمى ، بلا قيد ولا شرط ، صاغراً على أقدامهم ويتقيّد بنواميسهم لانها منزلة ، في عرفهم ، ويقدّم بخور الطاعة العمياء والعبودية على مذبحهم . فانه في عرفهم كافر ، اسمعوا وعوا واتعظوا بهذه التعالم المنزلة عليهم فينقاد لها بنو الانسانية البسطاء ، حيث يموّهون عليهم بانها تعاليم الناصري .

هذا هو « جبراننا النبي » كما يعرفه الفلاسفة والعباقرة ، الخالد بخلود تعاليمه الرائعة ، وبشارته الصادقة ، ونهجه المستقيم السويّ في مصاف زملائه الفلاسفة الخالدين بآثارهم الغالية الذين قلّدوا الاجيال روائع أَدمغتهم الناطقة بعظائمهم — نظير ارسطو ، افلاطون ، وسقراط ، وشيشرون ، ونيتشه وغيرهم ... — وانّ اسم جبران لقد درج وأُدمج في عدادهم ومصافهم رغم اعدائه الاقطاعيين الافاكين ...

والآن يا قارئي العزيز ، اني انتقل بك الى مرامك وهدفك وبغيتك الى حياة كبير زعمائنا العبقري ، وأديبنا الملهم في عصر نهضتنا الادبيّة الحديثة الرائعة صفحاته الذي قلب الاوضاع الكتابية الانشائية ، وأسلوبها القديم المعقّد المستهجن ، وتقاليدها البائخة رأساً على عقب كما قد شهد له أئمّة اللغة والادب والفلسفة . وحيث تعرفنا بذلك مؤلفاته الناطقة بجلال عظمته . ولقد نهج نهجاً جديداً رائعاً ، وسلك طريقاً سوياً سهلاً لأسلوبها الكتابي خاطاً لنفسه أسلوباً حديثاً جزلاً لطيفاً قريب المنال ، سلساً رقراقاً كالجدول

الناعم العذب معلناً ثورته الفكرية الفذّة على التقاليد والاساليب الانشائية المبتذلة . فاذا بهِ الفاتح العبقري ، وقد ظفر بضالته المنشودة محرّراً النسق الانشائي من ربقة قيوده الصدأة . ولطالما قد أقبلت اليه القلوب الظامئة وهفت الى تعاليمه الجديدة ومبادئه الرائعة ومنهاجه الساطع ، فارتوت من هذا الينبوع المتدفق الصافي العذب . واحتلت عرشها السامي الذي شيّده لها — جبران — فاذا هو خالد بخلود الآباد .

حياته

انها لمباركة تلك الشجرة الوارفة الظلال التي نفحتنا بها الأرز الخالد المقدس بنسيمه البليل الناعم الشذي ، وسليل أبناء الجبابرة الميامين ، وحفيد أبناء مدينة المقدّمين «بشرآي» الرابضة كاللبؤة في جوار الارز ، وعرينها الحصين اليقظة من هجمات المغيرين — فأعطتنا هذه الثمرة اليانعة المباركة ، وقد كان انبثاق رغوتها الصافية الى عالم الوجود وحيز الكفاح، واشراق بدر ميلادها « جبران خليل جبران » العجيب في ٦ كانون الاول سنة ١٨٨٣ في تلك البقعة الخصبة وعلى نفحات موسيقى نهر « قاديشا » المسكرة والحانه العذبة ودغدغة الطبيعة الحنون ، وهينمات نسيم الوادي اللعوب الطروب تبشر بميلاد النابغة اللبناني فتى اليوم ، وفيلسوف الآتي الذي تمخّض بـه الزمن ، فاذا « جبران » في تاريخ الأجيال العظام وأحداثها السنيّة همزة وصل وثقى بين عصرين، عصر مدبر بأحداثه بما انطوى عليه من سياسات طاحنة،وتواريخ جليلة سيجلها الواقع ، ورجالات لعبوا دورهم الهام إن في حقل السياسة الدولية ، أو في الحقل الأدبي العلمي والفني . منهم خبا نجمهم في منتصف مسيره ولم يبلغ مداه ، ومنهم أكمل مسيره ، ولكن التاريخ لم يسجل لهم

صفحات مجيدة تذكر مع رجالاته الخالدين — وعصر مقبل يبتسم لابنه الذي سيكون له العبر الواعية ، والاحداث الخارقة يلتفت اليه الزمان مشيراً نحوه : هذا هو فتى الاجيال، ونابغة العصور . فكان « جبراننا » نغمة عذبة، ونشيداً علوياً بفم الدهور ، مسجلاً ميلاده بأحرف من نار في سجل الخلود الآتي . انّ استاذنا العلاّمة « عيسى ميخائيل سابا » جاء عنه القول الفصل بشأن مولد نابغتنا الكبير الخالد « جبران خليل جبران » مناقضاً المؤرخين برأيه المصيب وبحثه الدقيق، وحجته الدامغة وحيث يرجع اليه في كل مشكلة دقيقة ، علمية ، تاريخيّة ، بان « جبران » قد انبثق فجر حياته لعالم الوجود في مدينة بيروت . كما قال هو عن نفسه في كتاباته الأدبية الرائعة ومقالاته الرنانة الشذيّة التي كان ينشرها في مجلة « المقتطف » الشهيرة من وطنه الثاني، ومن بينها الى الأديبة الكبيرة النابغة اللبنانية الساحرة الخالدة « مي زيادة » يقول لها : اني ولدت في بيروت كما جاء في نفس المجلة المذكورة في ١٩٢٧ — ١٩٢٨ .

أجل قرائي الاعزاء — على هذا الشاطىء اللبناني الرائع حيث قد ذرّ منه وأشرق بعيداً شعاع الفكر اللبناني اللآمع وحمل مشعل الحضارة الى ما وراء البحار كما ينطق لنا التاريخ بهذه الروائع والبدائع حاملاً مشعل الثقافة والعلوم والفنون . هكذا تسرب وتسلسل الفكر الناضج بالنبوغ اللبناني في الاحفاد النوابه الافذاذ . اذا « بجبراننا » فكرة صافية متبلورة طبق الاصل. وما كاد يترعرع في نشأته النديّه، وطفولته المرحة تحت رعاية والديه . ويشبّ عن الطوق ، فاذا بوادر الذكاء ، وعلائم النجابة تلوح على محيّاه الوضاح ، وتنبعث من خلال ناظريه الثاقبين أشعة النبوغ ، وطلائع العبقرية . يشدّ بهِ الفكر النابه متطلعاً من وراء ستاره الى مستقبل بعيد

محفوف بالآمال والاماني . تارة مضطرب البال ، قلق الفكر لما يخبئه له الغد المجهول وراء ذلك الستار الكثيف. وطوراً ينذره الغيب بما كان يخترقه بفكره الثاقب البعيد المرمى من الاحداث الجسام .

نشأ فيلسوفنا فيما بعد مضطرب الاعصاب ، متأرجح الافكار ، متشائم الأحوال ، كأني به أحد الأنبياء لبعد نظره الخارق العجيب لحجب الغيب. وانها لبادرة نادرة ومعجزة باهرة قد أُوتيها — هذا هو الدماغ الكبير ، والعقل الجبّار الناضج في ذلك الجسم النحيل .

وبعد ، قد نكبه الدهر وأناخ عليه بحدثانه ، والدهر غشوم . وهو لا يزال ليّن العود، نديّ الشباب، فهصر غصناً طريّاً من شجرة حياته، وعضداً متيناً يستند اليه في الملمّات لدفع النكبات ، محطـّماً أحد جناحيه ، حيث قد افقده والده ، وجبران دون العاشرة ، ثم هاجر الى الولايات المتحدة مع والدته وشقيقتيه سنة ١٨٩٦ وبقي له اخ في لبنان . واسطوطنت العائلة الجبرانية مدينة « بوسطن » من اعمال الولايات المتحدة تعمل وتكدح كباقي الناس خاصّة النازحين منهم الى ديار الغربة لتضمن قوتها وراحتها .

وكان آنئذٍ « جبران » في الثانية عشرة من عمره . ثم ما لبث أن نكبه الدهر ثانية نكبة خرساء محطماً جناحه الثاني الحنون بوالدته . على ما يروى كانت قد عادت الى لبنان مع احدى ابنتَيها. وبقيت شقيقته الثانية « مريانا » معه الى آخر حياته في المهجر . وقد أظلمت الدنيا في عينيه وراشه الدهر الجاني بسهمه الحاد في صميم قلبه الوجيع النابض. وقد تأثر بهذا الجرح العميق الثخين ، فانطوى عليه متألماً دامياً ، كأني به كالاسد » يعالج جرحة الأليم الدامي بما أُوتي من حزم قوي وصبر عجيب في حياته الجبارة على مصائب الدهر وحدثاته . وما زال يعالج جرح قلبه الدامي العميق الناكيء حتى رماه

أيضاً بسهم آخر مزدوج اكثر مضاء ، فأصابه برئتَيْه ، أخيه وشقيقته ، بما عرف وحلّ بلبنان إبان الحرب العالميّة الاولى . فاذا « بجبراننا » النبي العبقري الخالد كأرميا النبي في بكائه ورثائه لاورشليم . يرثي اهله بمقال ممتّع منطقي فلسفي رائع عظيم سامي النبوغ والنضوج المشهور : - مات اهلي — وكما قال عنه احد ادبائنا الاعلام الخالدين « الخوري يوسف الحداد » رحمه الباري — إنّ جبران له شجو في تحطيم لبنان ايام الحرب ابلغ من مراثي ارميا لأورشليم « تأملْ يا صاح الوصف البليغ الرائع في « جبران » الكافر عند احفاد « قيافا وحنان » وهو صادر من احدهم . إذن اعتبر واتعظ — نعم اننا سنذكر هذا المقال الرائع في محل آخر من درسنا عن — جبران —

أجل — لقد ابتلى نابغتنا الكبير أشد المحن وقعاً ، بالالآم المبرحة ، والنكبات المفجعة ، وكان في جميعها متدرعاً بالصبر العظيم هازئاً بالملمّات ، صبوراً على الصعوبات كأني بهِ مع أبي الطيب :

« فصرت اذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال »

ولما كان جبران قد عجم عوده الدهر بحدثانه الحاد، وعصره بمعصرة محنه، وبوتقه ببوتقة فنونه الصعاب ، فاستقام عوده صلباً قويّاً ، واستوى نهاه الثاقب بقالب المحن يغالب الايام ويقاوم وثباتها بعزم لا يلين ، وهمّة شماء، وجلد ثابت أمام الأعاصير الهوجاء . وتقول الحكمة : نعم المؤدب الدهر. ولطالما قد تمرّس في ميدان الآلام والمصائب والمصاعب ، وعرك الدهر بما عُرف من ثبات وحزم ، وخاض معتركه كالقائد الباسل المجليّ رامياً من وراء أمانيه هذه ومحنهِ غار الانتصار لا في دولة السياسة ، بل في دولة القلم متسنماً فيها أعلى المناصب وأرقى المراتب . فكان لجبران ما قد تمنّاه، فاذا بهِ قد احتلّ سدرة المنتهى في ميدان الادب والعلوم والفنون متربعاً عرش

البلاغة والفلسفة والحكمة لآفتاً إليه أئمة الأدب الأعلام والبلغاء والأدباء والشعراء والفلاسفة حاملاً شعار العبقرية الخفاق من على قمة المجد .

فاذا ـ جبران ـ إمام البلغاء وسيد الفصحاء ، وربّ الفلسفة ، وأمير الحكمة الذي لا يجارى ، كما قد شهد له ذلك أئمة الحكمة وفلاسفتها .

عندئذ أخذ يرهف يراعه الثري الساحر بحبره بمداد دماغه العبقري الثاقب الغزير ، وخياله الملهم في مدينة العلوم والفنون حيث استقرّ في « بوسطن » يدرس فنّ التصوير والرسم الذي مالبث إليه نفسه التواقة عـــلى بعض الاساتذة الاختصاصيين الماهرين . وكان تارة يعتمد على نفسه لما أُوتيه من عبقرية بهذا الفن حتى غدا فيما بعد سيده وربه مالكاً زمام قيادته . عـدا ما كان قد تلقن من اللغات الثلاث. العربية والانجليزية ، والفرنسية . وخاصة لغة « شكسبير » اذ قد درسها جيداً وأتقنهـا إتقاناً عظيماً باهراً مدهشاً سباقاً بها على أبنائها حتى بزّبها رجالها محلقاً خفاقاً علمه في علاها كما سيأتي ونبين عنه في ذكر مؤلفاته .

وكان آنئذٍ قد أطلّ على ربيع الحياة الباسم ، وهو في عنفوانـه الغض وزهوه ومرحه نضير الشباب ريق الأمل يتلاعب به نسيم النضوج الواعي البليل في الخامسة والعشرين من سنيّ حياته تقريباً . ولما كان نابغتنا ابن لغة الضاد ، فقد أَحبّ أن يرتوي من ينبوعها العذب الفياض ، ومنهلها الكوثري ارتواء شافياً وافيا ، والحنين المذيب يعاوده بحبه القوي ، وحنانه الوجيع واشتياقه اللاهب الى لبنانه المحبوب المفدّى وطن الجمـال الساحر ومهبط الوحي والالهام ، ونور الحضارة والثقافة موحي النبوأ آت . فـكان له مـا أراد . هبط لبنان بعد غربة طويلة محبوبة مذيبة . ولما كان يرغب التضلع من اللغة العربية كما نوهنا ، تضلعاً متيناً كشيوخها وعلمائهـــا وأئمتها .

ومدرسة الحكمة حدّث عنها ،،، ولطالما قـد أعطت الأعلام النجباء الافذاذ من طلابها المشهورين خاصة في لغة الضاد . وقد بلغه شهرة استاذها الكبير العالم العلامة « الخوري يوسف الحداد » أمها جبران كالصـادي الى الماء العذب، وكان ذلك كما قيل شاباً غضاً نضر العود ريقه حوالي العشرين..

ومن بعد أن اتصل برئيسها وتعرّف إليه ، وبعد الحديث معـه في صلب الموضوع المنشود ، واستاذ اللغة العربية آنئذٍ وشيخها وحجتها المنوّه عنـه في صدد كلامنا هذا . وبعد أن تعرّف واندمج « بحدادنا » القويّ المطرقة، وسندانه الثابت المكين وأطلعه على ضالته المنشودة ، وما دار وجاء عن لسان (حدادنا) من الحديث الذي دار بينهما بشأن انضمامه تحت لوائه . ولا يزال شاباً غضاً يبسم له ربيع الحياة ، وعلائم النبوغ والنجابة بادية على سيمائه والذكاء يلمع من ثاقب ناظريه ، فتوسم الخير والأمـل بهذا الشاب النابه الرصين بعد أن ألمّ بطويته آتياً الى هدفه بالغـاً الى قصده ، متعجباً « حدادنا » من حديثه ، وزلاقة لسانه ، وحرية فكره ، ويقظة شبابه ، واطلاعه على ما يلمُّ بهِ من لغة الضاد ، والبون الشاسع بينه وبـــين رفاقه الطلاب . لكنه قد ارتبك في الجواب ، وان « جبران » الطالب الجديد انه ليجد فيه الذكاء الكافي والنبوغ الوافي والاستعداد التـام للانضمام الى طلاب الصف البياني العالي مقنعاً استاذه باستطاعته مجاراة رفاقه . لذا اقتنع « الحداد » بانضمام تلميذه الجديد لما قد تبيّن فيه من الذكاء الخارق والنباهة وقوة الاقناع في حديثه ، فاذا ـ جبران ـ حلقة جديدة في سمط رفاقه . اتجهت اليه الانظار إعجاباً وتسمّرت بشخصه الغريب الطالع ، ونضـــج انتباهه ورجاحة عقله ، وذكائه اليانع .

ومن ثم طلب الى استاذه مستميحاً اياه أن يرعـــاه بنظره ، ويشمله

بعطفه . فما كان من استاذه « الحداد » إلا ان استجاب ملتمسه نظراً لما رأى من تلميذه العزيز النجيب من اللطف وحسن الأدب ، وسمو الاخلاق ، ورجاحة في العقل متوسماً فيه وسيم الطالع .

هنيئاً « للحكمة الزاهرة » بطالبها النجيب العبقري فتاها في ذلك الحين ، ورافع علم مجدها الأدبي ، وفخرها العلمي مع أبنائها البررة النجباء الذين لمع نجم نبوغهم وذكائهم وعبقريتهم لا في سماء هـذا الشرق مهبط الوحي والنبوآت والالهام فحسب ، بل في بلاد الغرب وتحت كل كوكب . كان « جبراننا » قائدهم الفاتح العظيم ونابغتهم وفيلسوفهم . نعم لقد كانت الأنظار محدقة إليه وهو في « حكمته » باعجاب ودهشة . ما عساه يا ترى سيكون هذا الطالب النبيه العبقري السابح في خياله البعيد الى ما وراء ذلك الافق الخيالي ؟ وما لبث مدة حتى تمكنت أواصر المعرفة الاخوية وروابط الصداقة المحبَّة بينه وبين رفاقه الطلاب ، وكان اسم « جبران » على كل لسان يفوح عبق شذاه الزكي معطراً سماء الحكمة وأجوائها . وبعد مضي ثلاثة أشهر ، « وجبران » يرهف سمعه الحاد برصانة تامة ، وإصغاء عجيب ، وانتباه غريب لما كان يلقيه « الحداد » من الشروح والتفاسير في علم البلاغة والبيان مستفيضاً فيها كالبحر الزاخر . فأدهش استاذه ورفاقه بموقفه ووضعه الغريب الأطوار ، فكأنه كساحر ماهر ، أو نبيٍّ ملهم . وقد سبق في طلبه وحديثه الى استاذه ألا يطالبه كرفاقه ، من فروض كالمعتاد ، ويمهله مدة ما ـ هكذا نقل عن استاذه المذكور ـ وبعد انطباق المدة المتوخاة والمنحة المعطاة للطالب الشاب المرموق بالعطف الخاص « ثلاثة اشهر » ـ تقدم ـ جبران ـ من أستاذه بمقال رائع كان قد أعطاه لطلابه . فقابله بين رفاقه . عندئذ أخذت الدهشة إعجابها من استاذه مما

كتبه تلميذه « جبران » . بيراعه السيال ، وأملاه فكره الثاقب ونبوغه المحلق ، فسأله : ما هذا يا جبران ، وانى تقول لي: انك لست متضلعاً بلغة الضاد ، ولا تلمّ بها إلا إلماماً يسيراً ؟ لقد حلقت ، وبرعت مما حبرّه قلمك الرهيف وشحذه نبوغك الشاسع ، وأملاه فكرك العبقري ، وبسطه خيالك البديع ، وصبّهُ أدبك الواسع من البيان الملهم ، والتعابير الرشيقة القوية المبنى ، والتصاوير الفنية الرائعة . بورك فيك ايها الطالب الشاب النبيه اللآمع الراجح العقل . تشجع يا بني فالمستقبل ينظر اليك من وراء حجابه مبتسماً بسمة الامل الكبير ، وسيكون فخوراً بك ، وستكون من رجالاته العباقرة الذين يخلدهم التاريخ طي صفحاته الذهبية . ثِقْ وسِر على بركات الله ، وليرعك بعينه اليقظى ـ هذا ما قد فاه به أستاذنا الكبير العلامة « الحداد » مهنئاً من كان المستقبل ينتظره لينصفه ويدمجه في عداد رجاله الميامين الخالدين . فكأني باستاذنا وشيخنا العلامة الجليل الخبير خرق بنظره وبصيرته حجب الغيب ، كنبي ، وتحقق كلامه في تلميذه الموهوب الملهم ، فاذا هو آية عجيبة في فم الأجيال ، وأنشودة خالدة في كتاب الزمن . رغم حساده ...

قضى « جبراننا » في معهد الحكمة العالي طيلة أربع سنوات . وبعده خرج الى معترك الحياة الفسيح ، ترافقه الآمال الكبار ، وتحدو به الاماني البعيدة المدى مترقبة ما عساه يكون طالب الحكمة وابنها الحبيب البار العبقري ، وحفيد مدينة المقدمين « بشراي » الرابضة بجوار الارز الخالد كاللبؤة الواعية المتحفزة للجلى . وما قد أنجبت من رجال دين ودنيا في حقليها الديني والزمني مما قد سجل لهم التاريخ فخوراً معتزاً من الاعمال المجيدة الناصعة صفحات خالدة رائعة ، لا غرو انّ فتى الارز هذا قد استمدّ

حكمته الرائعة وفلسفته الحكيمة ونبوغه السامي من وحي والهام هذا البلد اللبناني موطن الجمال والسحر والخيال والذكاء . وقد تشبع بروح الكتاب المقدس مستلهما منه روح انبيائه الخالدين مرتوياً غارفاً من نبعهم العذب الالهي الصافي . « كداود النبي ، وسفر أيوب الصديق ، وحكمة سليمان ، وعبر ابن سيراخ ، وحنان وعاطفة وفلسفة ارميا النبي . وبلاغة الرسول بولس. وجرأة وحقيقة وقوة وحرّية وسمو وصدق تعاليم الناصري.

فلا غرو إذن ان دُعيَ « جبراننا » ولُقب بالنبي كما يعرفه حقيقة العباقرة الذين درسوه جيداً وسبروا غور حكمته وأدبه ، وعجموه وتشبعوا وغرفوا من مناهل فلسفته وموحيات الهاماته ووحيهوخياله البعيد المحلق في عالم العبقرية والنبوغ الغريب . هذا ما يشهد به الذين عرفوا « جبران » في جميع أَطواره ومناحي حياته ما قد حبَّره يراعه السحري وأملاه ذلك الدماغ الفلسفي الذي لا يضاهى ولا يحاكى ولا يجارى ، وقد نوّهنا ان الأميركان الأدباء يعرفون جبران ويقدرونه أعظم تقدير واكثر معرفة منا نحن اللبنانيين ، ابن وطننا ، ويلقبونه « جبران النبي » بفخر وإعجاب . وكتاب « النبي » عندهم بمثابة انجيل يتلونه في كنائسهم وجميع أنديـة اجتماعاتهم الدينية والادبية . تأملوا واعتبروا يا أبناء لبنان ! ـ

خرج « جبران » من « معهد الحكمة » العالي الزاهر تاركاً ذكراً عاطراً واعجاباً بعيداً بما قد ناله من قصب السبق في ميدان الأدب والبيان والعبقرية النادرة المثال . وهكذا كان ، وسيبقى « جبران » أحدوثة غريبة في كل فم ، ومثالاً سامياً في علو اخلاقه وشممه وإبائه ، غادر لبنانه الغالي المحبوب عائداً الى وطنه الثاني حيث صرف فيه طيلة حياته الباقية ، ويقدرون للعلم والفن والنبوغ حق قدره . أقول هذا بمرارة متجهاً الى ابناء

وطني اللبنانيين ولو بقي جبران وامثال جبران من اللبنانيين العباقرة الاذكياء الذين عاشوا واتخذوا لهم وطناً ثانياً « لبنان » آخر لكان انطفأ ذكرهم الطيب وخمد نبوغهم وذكاؤهم وكانوا أثرا بعد عين في هذا البلد الملهم ...

انّ « جبران » في لبنانه الثاني كان أبداً يذيبه الحنين الوجيع ويشحذه مرّققاً عاطفته وجوارحه الى وطن الجمال والسحر والخيال ، وطن الأنبياء والعظماء مهبط الوحى والالهام حيث رقد فيه آباؤه وأجداده الكرام ، وأول ما فتح نظره الى النور مستلهماً من سمائه الصافية الرائعة وجماله روائع وبدائع كتاباته وفلسفته وحكمته وخياله العبقري من نفحات أرزه المقدّس ومن سحر وخشوع وادي « قاديشا » .. وما لبث أنْ أكبَّ إكباباً جهيداً على فنّ التصوير والرسم ، والتأليف وقد برع وفاق وتفوّق بفنيّ الرسم والتصوير ، فكان « لجبران » شهرته البعيدة التي قد احتلّتْ مكانتها الاولى وكان منزله الصغير الكبير متحفاً لما رسمته تلك الريشة الجبرانية الساحرة المبدعة ، ومعرضاً فنياً لأبنائه الملهمين . هذا بعد أنْ درس علىفنانين مثاليين عباقرة هذا الفن فى باريس سنة ١٩٠٨ على يد استاذ كبير يدعى « اوغست رودن » وآخر « وليم بلايك » الفنان المشهور أيضاً. اما جبران فقد فاق اساتذته بهذا الفن كما شهد له العالم بما لريشته السحرية وما قد أبقته ينطق بفنه البديع الملهم الرائع . ولم يتوقف عند هذا الفن بل تابع ساهراً ، ساعياً ، مكباً للتضلع تضلعاً عجيباً في لغة « شكسبير » حتى ضاهاه وجاراه ، بل بزه محلقاً عليه هذا النسر اللبناني الجبار الملهم ...

هذه مؤلفاته الانجليزية شهود عدل ناطقة بعبقريته الفذّة وذكائه العظيم الخارق ونبوغه اللبنانى المشهور . دونك انجيله « النبيّ » الناطق بعظائمه

وخلوده المقدس ، خاصة عند أبناء الغرب يصحبونه معهم أينما وحيثما حلوا وارتحلوا ـ عدا بقية مؤلفاته الاخرى بهذه اللغة الذي الف بها شرقي لبناني عربي عبقري ، فيلسوف ، ملهم ، فسما محلقاً عليهم .

« وجبران » بنبوغه هذا الغريب وإلهامه الخارق ، وتشبعه من حكمة الفلاسفة حيث قد اقتفى آثارهم متتبعاً خطاهم متأثراً بمناحي حياتهم الفريدة، منهم زميله العبقري الكبير الفيلسوف الالماني « فريدريك نيتشه » قد راقه جداً أدبه الجم العالي وفلسفته السامية واعجبه طموحه الى المجد والحرية ، والاستقلال الذاتي الفكري المتفلت من قيود الاستعماريين الاقطاعيين الغاشمين ، محطماً أغلالهم الثقيلة نابذاً سلطانهم الغاشم الاستبدادي ، ومبادئهم الرجعية الخنفشارية العجائزية ، ومشعوذات بشرية جميعها ترمي من وراء ستار مزيف باقوالهم البرّاقة المزخرفة المبطنة بالغرور للتسلط والسيطرة على أولئك السذج المساكين المغرورين المخدوعين بهم .

رأى كل هذا مناقضاً لمباديء الناصري المصلح العالمي الكبير المستقيم الوضع ، القائد الحكيم المبشر بالسلام والوئام والمحبة الصحيحة والاخوة الصافية السليمة الذي سيطر بوداعته المحبوبة وبساطته البريئة المقدسة بساطة الاطفال ، وتعاليمه السامية النقية ـ لذا ثار « جبران » الحكيم العبقري الحر الجريء ، على الظلم المستفحل ونقم على الطغيان وحارب الترهات والتقاليد البشرية الكاذبة، والتعاليم الخنفشارية العجائزية الخداعة ،...

اسمعوا وافقهوا ما يقول الخصوم عن « جبران » انه كافر ، ملحد ـ اجل ، ان جبران كافر ملحد . لأنّه لا يدين بمذهبهم ، ولم يتبع شرائعهم البشرية البالية ، وتعاليمهم الفريسية ولم يقتف آثارهم الوهمية ويسير على خطواتهم السائرة للتفرقة والدمار والعنعنات مبددين خراف الناصري الوديعة

في أودية الحزازات والزعامات والغايات الأنانية القتالة واخضاعهـــا ذِلا وصغارة واستعبادها لمآربهم وأميالهم الجامحة ، واذلالها تحت نير سيطرتهم — لذا قد شنوا عليه حرباً شعواء بلا هوادة ولا مهادنة وحنقوا عليه حنقاً بغيضاً فريسيًّا . ولم يقفوا عند هذا الحد، بـل صبوا جام غضبهم وحنقهم ونقمتهم على كل من يرفع قـدر جبران ويقرأ مؤلفاته ، فيرشقونه بالالحاد . . . — وينعتونه بالكافر جبران — وهـا إنهم يعودون ، فيقدسون جبران ويقبلون بلهفة الظامىء الى اقتناء مؤلفاته واذخارها ومطالعتها وعرضها في مكتباتهم وأعز مكان . ولطالما قد ملأوا الارض وشحنوها بالضجيج وعنان السماء بالشغب والغضب والسخط والصخب والحنق (اصلبوه ، اصلبوه ، دمه علينا وعلى اولادنا) هـــذا هو جبران الفظيع ، وكفره الشنيع ، لانه لم يؤمن بيسوعهم القدوس ، وتعاليمه . ولانه لم ينحن امـــام عظمتهم وجبروتهم عبداً ذليلًا ذميماً ليدخل جنة الافراح المعدة لعبيده الخانعين لسلطانه . . .

جبران العبقري

انّ — جبران — في تفكيره السامي ونبوغه الفريد ، وعبقريتـه الحادّة الفذة النفاذة حجب الخيال ، والافق البعيد . انـه لمن أعظم المفكرين العباقرة ، وأكابر البلغاء والادباء وسيدهم بما قد خلده للاجيال من هـذه العبقرية الرائعة ، والآثار النفيسة ، والحكم البديعة ، والقيم الراقيـــة ، والمؤلفات النفيسة التي ضاهت أسفار اولئك الفلاسفة والانبيـاء الخالدين في بطون التاريخ بجليل روائعهم وعظائمهم الناطقة بآثارهم الجليـــلة وآياتهم الخارقة . انّ موحيات — جبران — دستور اصلاحي يسير عـــلى ضوءها ومبادئها الحرة السديدة العالم الادبي الحر الصادق المبدأ الواعي النـازع الى

المثل العليا والقيم الروحية الذي يكره الاستعمار الممقوت محطماً اغلاله ، ممزقاً حجب العبودية العمياء المنحطة عن بصيرتـه . نعم ، لم يرق كل ذلك لاولئك الخلفاء فثاروا عليه كالنار في الهشيم وقد شنوا عليه حرباً سجالاً ممزقينه شر ممزق يقيمون الارض ويقعدونها ضدّه واطفاء كل أثر له .

يا حبذا لو صحت الاحلام ـ لقد اتجهت الانظار الى جبران العبقري الاجتماعي ، المصلح الكبير، الثائر بمبادئه الحرة الاصلاحية الصادقة التي تبشر بروحه وتبث السلام وتلقي الوئام وتنشر لواء العدل والاخاء على غرار المعلم يسوع ورسله الاولين ـ لذا خافوا على انهيار صرح سلطانهم، وتقويض أسس زعمائهم . فعمدوا الى التفرقة والانشقاق في الصفوف والمواعيد البراقة قائلين : ان جبران مجنون ساحر ، كافر فيه شيطان ، ومبادئه وافكاره و كتاباته سمّ قتال للبشر وهدّامة لتعاليم ومباديء المسيح وشرائعه المقدسة . فجبران يبشر بيسوع جديد غـير يسوع الناصري كما يدعون ويزعمون . لان جبران المصلح الاجتماعي ، الحر المباديء ، الصادق الوجدان الذي لم يمالىء ولا يماري ويخادع . قد رأى عيوباً كثيرة ظاهرة للعيان وخرافـات وسخافات وترهات رجعية سخيفة بين البشر الضعفاء ، تناقض انجيل الناصري المنزه عن مثل هذه السخافات المشوهات، ولو ان كثيرين من الطبقة الراقية تسير وراء رعاتهم الفريسيين نظير العبد الذليل الخانع لمشيئة سيده. ويدهشني كثيراً كيف يخضعون لهم خضوعاً اعمى ، ويطيعونهم طاعة عمياء . فاذا هم يرون الابيض أسود مؤمنين بهذا الغرور والضلال الوهميّين، كأنهما الصواب بعينه حيث يقولون : اننا نسير وراءهم « كالعميان » إن هبطوا الى الجحيم نهبط معهم ، وان صعدوا الى النعيم نصعد معهم == اهكذا ينطق ويتفوه ابناء الوعي والاشعاع والنضوج في عصر النور العشريني ? قد كان « لجبران

الرسول » العالمي الأمين صدى بعيد لرسالته الصحيحة في مجتمعه الواعي ، وقد احتل عرش القلوب بانياً عـــلى انقاض تعاليمهم ومبادئهم المتداعية بهاتيك الترّهات وشرائعهم البشرية المموهة بزعاماتهم الاقطاعية كما قـد تبين جميع ذلك لدى الطبقة الراقية .

جبران الفيلسوف الاجتماعي

اجل ، لقد ظهرت لنا جلياً عبقريّة جبران الملهمة وفلسفته الحقيقية العالية وشخصيته الخارقة ، ومقدرته الكتابية الفنية ، وسحر بيـانه ، وقوة بلاغته الانشائية الجزلة وفصاحته المبتكرة المتينة التركيب ، وخضع له من سبر جميع كتاباته ممحصاً اياها جيداً عـلى ضوء التفكير العميق خاصّة في لغـــة « شكسبير » التي فاق وحلق في اجواءها رجل عبقري ملهم غريب عنها قد استمد وحيه البياني ونبوغه الخيالي من سمـــاء لبنان مهبط الوحي والسحر والجمال والالهام .

فاذا بجبران قد أُحصي في مصاف الفلاسفة الملهمين الخالدين . ان ذلك لا يحتاج الى برهان بل ان ما قد تركه للعالم من آثاره الفنية وكتاباته الأدبية الأجتماعية البليغة يشهد لدماغه الخارق المحلق في سمو الخيال اللاّمتناهي الذي قد ضاهى زملاءه النوابع حملة مشعل نور الحضارة وهدى الفلسفة ، وحجـة البلاغة الخالدين في تاريخ الاجيـــال . وقد أسس جبران مدرسة اجتماعية لرسالته السامية فانضمّ الى صفوفها نخبة من الادباء الاعلام وحمـلة الاقلام ومن الكتاب المجيدين المشهود لهم في عالم الادب الرفيع السباقين في حلبته ، وذلك في ربيع سنة ١٩٢٠ في موطنه الثاني « بوسطن » هم : ميخائيل نعيمه . نسيب عريضه . رشيد أيوب . أمين مشرق . ندرة حداد . ايليا ابو ماضي .

عبد المسيح حداد ـ وليم كستفليس . وقد أسماها الرابطة القلمية . ولطالما كانت هذه الرابطة همزة وصل بين لبنان والمهجر ليعلم الغرب ان الشرق لهو مهبط العلوم والفنون وموطن الوحي والالهام وبلد العبقرية والحضارة والثقافة . وقد حمل مشعل هذه الحضارات والثقافات الى اقصى العالم كما يشهد له بذلك التاريخ الناطق بعظائم ونبوغ أبنائه الميامين . فاذا بالرابطة القلمية هذه رابطة ادبية مكينة ، علمية فنية ثقافية سطع نجمهـــا العجيب في سماء الغرب ، وقد عرفهم بنبوغ ونجابة وذكاء، وملهمات هذا الشرق الملهم مهبط النبوآت والخوارق منذ القدم . لكن الاسف الشديد والالم المرير قـد ألمّ بهذه الرابطة وفرط حباتها الغالية فيما بعد . التي طالما قـد زينت ليس فقط جيد الشرق بل جيد الغرب . وكانت الكارثة الاليمة والفاجعـــة الفادحة ، والكآبة الخرساء التي قد حلت بها وتناثرت حباتها النفيسة فاختطفت منها مؤسسها الجبار العبقري العظيم نابغتنا الفيلسوف حامـل مشعل الرقي والفن رسول الحضارة وإمام الادباء وسيد الكتاب البلغـاء ، النبي الملهم « جبران » إذ قد خبا ذلك الكوكب الهـادىء الساطع وراء ذلك الشفق البعيد . نعم لقـــد كانت فجيعة أليمة قاسية مريرة وخطب جلل ألمّ في قلوب زملائه الاحباء ومعارفيه ، وبهذا الشرق الثاكل الدامي القلب ، بل في وطنه لبنان الذي أحبه حباً جماً مقدّساً ورفع مناره غالياً . لبنان المفجوع بابنهِ البار الفيلسوف النابغة وراء البحار .

قالوا دهى الفنّ والفصحى وثلهما ... خطب أَليم اذنْ : قد مات جبران
والأرزُ نكّس حزناً والقلوب غدت ... كلمى مفجعة والدمـع هتّان
تجهّم الكون من حزن ومن أَلمٍ ... لموت جبران ، قد أَبكاه لبنـان
بكى اليراع َدماً في فَقْدِ نابغةٍ ... هل بعد جبران ـ نحرير وفنّان

يرثيه كلُّ أديب باكياً اسفاً ... لهولِ فاجعة ، تبكيهِ خلانُ
كان النعيُّ مصاباً فاجعاً جللاً ... أدمى القلوب اسى ثرثيه اوطان
بلابل الروض تشدو وهي نادبة ... تمزق القلبَ انغام والحان
تلفع الدوح اهداماً مجهمة ... وغاضَ رونقه تكسوه احزان
تلك «العرائس والارواح» مفجعة ... عليك قد افجعتها فيك اشجان
يبكي « النبي ويسوع واجنحة ... ودمعة » ما لها من بعد سلوان
كذا «العواصف والمجنون مع رمل ... وفي المواكب » تفجيع وخسران
وما يراعك قد ابقاه من اثر ... غالٍ علينا اجل ـ قد عز فقدان
هذي اناجيلك الغراء ناطقة ... في عبقريتك الشماء ـ جبران
تبقى على مرِّ اجيالٍ مخلدة ... عُلىً ، تردّدها لسن وآذان
لآلىء رُصّعت في جيد ازمنةٍ ... وتنطق الدهر بالأمجاد ازمان
ولنخشع الآن إجلالاً وتكرمة ... للفيلسوف النبي الحي ـ اخوان

اجل ـ لقد مات جبران في وطنه الثاني بعيداً عن لبنانه المفدى وآله واحبائه في سنة ١٩٣٢ . بلى لقد كان اشد وقعاً والماً ليس في المهجر فقط، بل في العالم الأدبي اجمع وحز القلوب اسىً وتفجعاً بهذا السيف الرهيف الحاد وشطر المهج واستنزفها دَماً وحزناً بفقد نابغته الفنان العبقري والفيلسوف الخالد ـ وها ان جبراننا الحبيب لم يلبث طويلاً على لبنانه المفدّى وقلوب احبائهِ في منفاه،فقد شاء لبنان انْ يضم رفات ابنه البار الجبار العظيم ويرقد حسب وصيته بجوار الأرز المقدس الذي طالما قد استلهم منه عبقريته الفذة ووحيه الخيالي المحلق من صفاء سمائه وهينمات نسيمه،الرقة والعذوبة في روعة كتاباته ومن جباله الشامخة الرائعة وأوديته الساحرة الخاشعة الوادعة قوة تعابير بيانه وبديع إنشائه خاصة من ذلك الوادي التاريخي الرائع وادي

« قاديشا » . انّ جبران حقاً لم يمت ، بل انه حي في قلوب محبيه وعارفيه ومقدري نبوغه وعبقريته وفنه وفلسفته . يحجّ الى ضريحه المبارك العلماء والادباء وغيرهم من كل حدب وصوب خاصة أبناء الغرب الذين عاش معهم وبينهم فعرفوا فيه ذلك النبوغ اللبناني الملهم ، فقدّروه حق قدره لا بل اكثر من ابناء وطنه . اقول هذا بأسف مرير . ولقد صحّ فيه قول الكتاب المقدس : لا كرامة لنبيّ في وطنه . وكما أُذيع وشاع لقد تقاسم ابناء العلم الادباء الفنانون آثاره النفيسة الباقية الخالدة كأنها تحف قديمة : فبلغ ثمنها مئات الالوف الدولارات . أَلافلننحن إجلالاً وخشوعاً امام العبقرية الملهمة والنبوغ اللبناني ...

آثاره

في اللغة العربية ـ
الاجنحة المتكسرة
الارواح المتمردة
عرائس المروج
دمعة وابتسامة
العواصف
المواكب
البدائع والطرائف
في اللغة الانجليزية ـ
النبي « انجيل جبران »
يسوع بن الانسان
المجنون

رمل وزبد
السابق
آلهة الأرض
كأني بجبران يقول مع الشاعر :

تلك آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

هذه هي آثار جبران النفيسة والدرر الغوالي الذي قد رصّع بها جيد الاجيال الناطقة بنبوغه الفريد وعبقريتهِ العظيمة وموحياته الملهمة لشخصيته الفريدة التي ضاهت بمثلها العليا وقيمها الوثابة الى المجد والسؤدد والحرية والانعتاق من تلك التقاليد البالية والمبادي السخيفة العجائزية ومن كابوس الظلم والاستبداد وتلك السلطة الاقطاعية البائدة مع الزمن التحرّري كأولئك المفكرين الاحرار الفاتحين للحرية والمجد باباً فسيحاً محطمين أغلال الاستعمار المشؤوم الغشوم ، الناشرين علم الحرية والوعي التام والطمأنينة والاخوة والوطنية . وأصرح بكل أسف مرير حيث انه لا تزال عندنا فئة خانعة عمياء رغم الوعي والنضوج « وعند جهينة الخبر اليقين » — رازحة تحت نير الاستعمار . توهمة الحق والعدل والسلام والراحة والجنة تحت سلطانه الجبروتي الشاهاني المنزل ... انّ العبد يحلو له أبداً الخضوع والخنوع الاعمى لسلطان سيده ، والانقياد لمشيئته ، والتربع الذميم عند باب بلاطه . لانه وُلد هكذا عبداً ذليلاً وسيموت هكذا هانئاً مسروراً . . .

انّ آثار جبران هذه التي ذكرناها بهذه الصفحة لقدملأ ذكرها الخافقين ، ولا مندوحة لتبيان شرحها والاتيان على ذكر بدائعها وروائعها وعظائمها . فانّ مشعل الحق ومنارة الهدى والصراحة المحبوبة والحرية المخلصة جميعها تنطق برسالة وعبقرية هذا الرسول الامين والجندي الصادق في أمانته

وجهاده وكفاحه في خدمة الانسانية وتحريرها من ربقة الجور والاستعمار والطغيان ، والسعي الحثيث والنمو المثالي في مدارج العلوم ومراقي الفنون والآداب في منحى حديث واسلوب جزيل سهل وتعابير فنية واضحة وبيان محسوس ملموس قريب المنال ـ ونأتي على ذكرها إجمالاً مارين بصفحاتها الذهبية مرّ الكرام قدر المستطاع . لانها طالما قد أضحت أشهر من نار على علم ، مع إتيان شذرات منها في معرض الحديث عن ذكر اسلوبه الكتابي . ونكتفي الآن بايضاح عام شامل عمّا يتضمنه كل مؤلف وما يرمي اليه من الغاية المنشودة المتوخاة الاصلاحية والهدف المقصود .

ـ الاجنحة المتكسرة ، والارواح المتمردة ، وعرائس المروج . هذه الكتب الثلاثة تهدف الى مرمى واحد ومغزى واحد إصلاحي عام حمل به صاحبها ضدّ السيطرة المستبدة الجائرة وسلطة أربابها ورؤسائها وزعمائها الذين يدّعون انّ مفاتيح المعرفة والحق والعدالة بيدهم معطاة من فوق ... بالوراثة يحلون ويربطون . يأمرون وينهون ، يفعلون كما يشاؤون . والويل لمن لا يخضع لسلطانهم . فانه سيكون ، لا محالة بدون استئناف ولا تمييز ، نصيبه الهلاك والضلال والتشريد . لماذا ؟ لانه كافر ملحد هرطوقي ، بهذا يا ناس قد نطق جبران الرسول الامين وبشر برسالته الصحيحة ... فهو كافر في عرفهم . قد حمل عليهم حملة جبارة إصلاحية ، وأصلاهم حربا حامية لما قد رأى فيهم من الاعوجاج والظلم والانحراف والتناقض في جميع تعاليمهم ومبادئهم وتصرفاتهم البشرية ومناحي طرق حياتهم المعوجة لتعاليم الناصري وانجيله الكريم الذي هو نور العالم والحق والاخوة والتواضع. وبما قد جاء بين دفتيه من التعاليم السامية المقدسة والمباديء المستقيمة ، فيها روح الاخوّة الصحيحة والمحبة الصافية ، والسلام الصادق والوئام الحقيقي ،

والمسامحة الوفية الشافية الوافية والوداعة الطيبة البريئة وهلم جرا ـ خلافاً لما ينشرونه ويبشرون به كما هو ظاهر ومعلوم لدى الجميع . اذ يلقون الشغب ويفرقون الصفوف ويزرعون البغض في قلوب البسطاء والمساكين يرمون الفتن والحزازات والشحناء التي تملأ قلوبهم خلافاً بما يقولون ويبطنون وخلاف ما يظهرون . يعظون الناس بما لا يعظون به نفوسهم . يركضون وراء الزعامات والالقاب العالمية المخلوعة عليهم ... للتفرقة والحط نحراً وقسراً من اجل إحباط أولئك الاباء والرؤساء الابرياء المقاومين لسياساتهم المعروفة وعنعناتهم البغيضة ونفوذهم الأجنبي الاستعماري الدجلي والمتستر بتعاليم الناصري ادعاء لذلك الاصلاح ... كما يسمونه لنقع غليلهم وتشفيهم والبطش باولئك .... اهكذا علمهم الناصري وجاء في انجيله ـ فيقول اولئك الموالون لهم : انظروا زعماءنا واسيادنا الاجلاء الساهرين على خراف الناصري . نعم دابهم تصدر المجالس في المجامع واول المتكاآت في الولائم والاندية . يملأ الكيد والحنق قلوبهم الجشعة ليسحقوا من يناؤهم ولا يقتفي آثارهم الرامية الى الدمار ـ يأكلون بيوت الارامل وحقوق الايتام المساكين . يتنعمون بالطيبات والملذات ـ يرتدون الدمقس والحرير والذهب اللآمع طمعاً وصلفاً في هضم حقوق الضعفاء المجبولة بعرق جبينهم ودماء قلوبهم ـ اهكذا يا ترى علمهم الناصري وجاء في انجيله الكريم ؟ اهكذا كان يرتدي البز والخز ؟ اما قال : ليس لابن الانسان موضع يسند اليه راسه ؟ وقد مات عرياناً معلقاً بين لصين ملتحفاً السماء مفترشاً الارض ، وكان صليبه خشباً ـ وقد عاش فقيراً وديعاً ـ نعم انه لم يترك الاموال الطائلة والثروات الباهظة لاقاربه واخوانه وبني بجدته نظيرهم . . . اما قال : من احب اباً او اماً او اخوة واخوات واولاداً او امراة او بنين الخ : . . .

اكثر مني فلن يستحقني . وقال عكس ذلك : اي من احبني اكثر من هؤلاء جميعاً ، يأخذ عوض الواحد مئة ويرث حياة الأبد ؟ اين هم يا ترى من هذه الاقوال الناصرية ايطبقونها بحذافيرها على حياتهم ؟ بهذا القول الحر حاربهم جبران بانجيل الناصري الحقيقي ... لذا حملوا عليه وملأوا الدنيا صخباً وحنقاً وشحناء وانه كافر جعل نفسه آلهاً ،يجب ان تحرق جميع مؤلفاته فانّ السم مدسوس فيها مليئة بالكفر والالحاد ومقوضة لتعاليم واسس انجيل الناصري . الويل ثم الويل لمن يخالف مشيئة سيدهم... خارجا على سلطانه المقدّس المعصوم . انه يحل عليه الغضب المنزل مـــن فوق ... ومحروم يبعثونه تواً الى الجحيم . ولقد غدا جبران اليوم غير جبران الامس . ومؤلفاته أصبحت مقدّسة عندهم . ألا فاحكموا بالحق يا أبنـاء الحق . ـ اما كتاب دمعة وابتسامة . والعواصف والبدائع والطرائف ـ ما هذه الثلاثة سوى مقالات اجتماعية فلسفية في الاصلاح الاخلاقي العمراني دبجها يراعه العسال الفياض معالجاً بها الاحوال السياسية وامراض المجتمع الانساني الادبي بفنّ سامٍ وخيال بعيد لا يجارى ، رشيق التعبير بديع الفكرة على مثال بعض ما جاء في كتاب كليلة ودمنة ، لا بل أبلغ صباً وفناً واقوى عبارة وتركيباً واكثر شيوعاً . وكتاب « المواكب » فهو شعر قد نظمه بفكره الثاقب وخياله البديع الرائـــع وتصويره الفلسفي . وان كان جبران لم يعدّ في مصاف الشعراء . ولكنه في مواكبه هذا هو شاعر بليغ وفيلسوف رائع الخيال كما يشهد له كل من طالعه بامعان مشبع ـ حيث قـد ضمنه شعراً فلسفياً بعيد الغور والخيال بمعانيه الرائعة السامية استمدّها من جلال الارز وجمال لبنان الساحر وروعة مناظره وسحر اوديته خاصة وادي « قاديشا » وطهر اخلاق فتيانه وفتياته . وانه لمقارنة ومناظرة بين شيخ جليـل عرك

الايام وعجمها فذاق حلوها ومرها ، كلله الشيب وقاراً ورزانة ، واذا بهذا الشيخ الوقور كالشتاء الباكي الحزين يندب ايام حياته الباسمة في ريعان شبابه متذكراً ربيعه الباسم المدبر. وبين فتى غض الربيع ناضره، رشيق القد وافره يسرح ويمرح ويلهو لمطربات الحياة المرحة الراقصة على نغمات ناي الحياة العذبة المسكرة . يا لها من مناظرة فلسفية بديعة وعظات بارعة نادرة ، ودروس فنية مثالية لحياتنا الاجتماعية جاء بها جبران في مواكبه هذه ، اذ يسوقنا بها الى الطبيعة الحقيقية العارية من كل تصنع رائق وتزويق كاذب واقوال مبطنة بالرياء والخداع . هنـــاك الحب الصادق النقي ، والبساطة الوادعة المحبوبة ، والصداقة الوفية ، والسعادة الحقيقية الملموسة ، والجمال الطبيعي الرائع في قدس اقداسها . اما مؤلفاته في اللغة الانجليزية المترجمة الى اللغـة العربية ، فانها عِبَر سامية ، وحكم رائعة ورسائل صادقة ، وتعاليم صحيحة وبشارة حقيقية وفلسفة ملهمة بسيطة نبوية لم يأتها عقل بشري قط الا نادراً كما قد شهد لها كل من طالعها بحكمة وروية وامعان وسبر غورها وكنهها . فهذه جميعها قد اقتبسها « جبران النبي » العبقري من الكتاب المقـدس كما سبق القول في صدده ، مستمدّة من وحي سامٍ روحاني على غرار النبوءات التي جاءت في الكتاب المقدس . وجبران طالما قد تشبّع بهذه النبوءات غارفاً مرتويا من ينبوعها الغزير اللامتناهي والاسفار الالهية ، نظير نبوءة ارميا . وامثال سليمان الحكيم واســـفاره . وداود النبي . وسفر أيوب الصدّيق. وسفر يشوع بن سيراخ . ورسائل بولس الرسول . وصفوة القول وزبدته قـد اختطف وثمل بتعاليم الناصري الالهية السامية الجريئة الحرّة النورانية المصلحة التي هي دستور اصلاحي سام للعالم ونور ساطع شعشاع في دياجير هذا العالم المتخبط في الجشع والطمع الانساني القتال المنحرف عن جادة

العدل والصواب . ومنارة حق على شاطيء السلام وميناء الخلاص . وها انني افرد لك ايها القاريء اللبيب بعض شذرات ذهبيّة وآثار حكمية وآيات فلسفية خارقة وعبر واعية من تعاليم نابغتنا جبران .

اسلوب جبران الكتابي

ان اسلوب جبران الكتابي طالما قد نهج فيه نهجاً ناعماً لذيذاً وإنشاءه سلسل عذب يسيل كالجدول الرقراق فينساب انسيابا سحرياً خاطفاً . وقد سلك فيه مسلكا خيالياً ساميا قلما جاراه أحد ، بعيد المرمى مبلورا جذابا يبهر الابصار والبصائر بألوانه الرائعة الغضة ومعانيه السامية وذوقه الناعم والفاظه الرّيقة . وانه بتفكيره هذا لفيلسوف عبقري وزعيم كبير طالما خشع له العباقرة والادباء في اسلوبه الكتابي الفنان هذا . وقد امتلك القلوب وسحرها ببيانه الرائع وبلاغة معانيه ، وعذوبة تعابيره ، وبموسيقاه البديعة ، وقوة فنه الرائع الجذاب ، وعاطفته الكتابية الرقيقة . اذن انّ جبران ليدعى بكل حق بعد تحليقه الغريب في سماء الادب والبلاغة ، زعيما كبيرا من ادباء عصر النهضة الحديثة ، ومجددا روعته الادبية وشبابه النضير ومن قادته النجباء بما قد ابتدعه من اسلوب بديع رائع ، ونهج سويّ ساحر مستقيم في إنشائه الفنيّ . وبما قد خلع عليه من برد قشيب ناعم .

واليك بعض مقتطفات من اسلوبه هذا السحري البديع ، وخياله الرائع الجمال تبياناً للحقيقة الفلسفية الناصعة ، من مقال في يسوع المصلوب :

... في مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الانسانية من رقادها العميق وتقف أمام أشباح الاجيال ناظرة بعيون مغلفة بالدموع نحو جبل الجلجلة لترى يسوع الناصري معلقاً على خشبه الصليب ... وعندما تغيب

الشمس عن مآتي النهار تعود الانسانية وتركع مصلية أمام الاصنام المنتصبة على قمة كل رابية وفي سفح كل جبل . تقود الذكرى في مثل هـذا اليوم أرواح المسيحيين من جميع اقطار العـالم الى جوار أورشليم فيقفون هناك صفوفاً صفوفاً قارعين صدورهم محدّقــين بشبح مكلل بالاشواك باسط ذراعيه امام اللانهاية ناظر من وراء حجاب الموت الى أعماق الحياة .

... ولكن لا تسدل ستائر الليل على مسارح هذا النهـار حتى يعود المسيحيون ويضطجعون جماعات جماعات في ظلال النسيان بين لحف الجهالة والخمول ...

ـ واني لاضنّ عليك ايها القاريء العزيز لعدم كتابة هذا المقال الفلسفي الرائع بكامله . كما يعرفه ويقرّ به الجميع كالعباقرة والفلاسفة والادباء ... فأحيلك اليه في كتابه العواصف . ومن يا ترى لم يقرأ ويطلع على كتابات جبران النبي الفيلسوف العظيم ؟ وأنى لمثل أولئك الذين يدعون على جبران المؤمن الكبير بيسوع الناصري وتعاليمه الالهية الذي لا تزعزعه عواصف العالم وترهاته وسفاسفه. كيف يكون جبران كافراً ملحداً ، على من اطلع جيداً ممحصاً جميع كتاباته الفلسفية وما كتبه عن يسوع الناصري متبعاً خطاه سائراً على مبادئه ؟ وها انّ اقواله قد اضحت كآيات مقدسة يستشهد بها العالم ويدونونها نماذج مثالية وآيات حكمية رائعة عـلى صفحات الجرائد والمجلات في كل سانحة ومطلع عام وعيد يهذون بها معجبين مذهولين نظير نبوآت واشعار مقدسة . فكيف اذن يكون جبران كافراً ملحداً ؟ انى لاولئك الخلفــاء « الحكماء » كما يدّعون فيرشقون « نبيّ » عصر العشرين بالزندقة والكفر ان تحــبر اقلامهم وتخرج وتأتي افكارهم وتفلسفهم بعلمهم الالهي ان يأتوا بما اتى وكتب جبران عن الناصرى . نعم ان جبران كافر

مجنون في عرفهم لانه لم يؤمن بيسوعهم .

لا شك انك قرأت جبران وقرأته وقرأتـه مراراً كثيرة . ومن ياترى لم يقرأ جبران النابغة الفيلسوف الخالد ؟ ثم يتابع جبراننا مقـاله هذا الفلسفي العظيم اللآمضـــاهي عن يسوع الناصري فيتضح لكل شخص حر فهيم ايمانه الحقيقي المكين في انجيله المقدس ...

ـ في مثل هـــذا اليوم من كل سنة يترك الفلاسفة كهوفهم المظلمة والمفكرون صوامعهم الباردة والشعراء اوديتهم الخيالية ، ويقفون جميعهم على جبل عال صامتين متهيبين مصغين الى صوت فتى يقول لقاتليه : يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يفعلون ...

منذ تسعة عشر جيلًا والبشر يعبدون الضعف بشخص يسوع ، ويسوع كان قوياً ولكنهم لا يفهمون معنى القوة الحقيقية. ما عاش يسوع مسكيناً خائفاً ولم يمت شاكياً متوجعاً بل عاش ثائراً وصلب متمرداً ومات جبّاراً. لم يكن يسوع طائراً مكسور الجناحين بل كان عاصفة هوجاء تكسر بهبوبها جميع الاجنحة الهوجاء. لم يخف يسوع مضطهديه ولم يخش اعداءه ولم يتوجع امام قاتليه بل كان حرّاً على رؤوس الاشهاد جريئاً امام الظلم والاستبداد، يرى البثور الكريهة فيبضعها ويسمع الشر متكلماً فيخرسه، ويلتقي بالرياء فيصرعه . لم يهبط يسوع من دائرة النور الأعلى ليهـدم المنازل ويبني بحجارتها الأديرة والصوامع ويستهوي الرجـال الاشداء ليقودهم قسوساً ورهباناً ، بل جاء ليبث في فضاء هذا العالم روحاً جديدة قوية تقوض قوائم العروش المرفوعة على الجماجم وتهـدم القصور المتعالية فوق القبور وتسحق الأصنام المنصوبة على اجساد الضعفاء والمساكين ـ لم يجيء يسوع ليعلم الناس بناء الكنائس الشاهقة والمعابد الضخمة في جوار الاكواخ الحقيرة والمنازل

الباردة المظلمة ، بل جاء ليجعل قلب الانسان هيكلًا ، ونفسه مذبحا وعقله كاهنا . هذا ما صنعه يسوع الناصري ، وهذه هي المباديء التي صلب لأجلها مختاراً ، ولو عقل البشر لوقفوا اليوم فرحين متهللين منشدين اهازيج الغلبة والانتصار . واليك ايضا بعض شذرات من مقال رائع عنوانه العبودية :

كم وكم من الناس هم عبيد في هـــذه الحياة فيظنّون انهم احرار رغم تعقلهم ونضوجهم ووعيهم وثقافتهم . ولكنهم خانعون تحت نير اوليائهم الطغاة السفّاحين تقيّدهم شرائعهم البشرية الزائفة وتقاليدهم البالية البائدة المموهة . فاسمع جبران النبي ـ ماذا يقول في حكمته وفلسفته :

ها قد مرّ سبعة الآف سنة على ولادتي الاولى وللآن لم أرَ غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبلين لقد جبت مشارق الارض ومغاربها وطفت في ظل الحياة ونورها وشاهدت مواكب الامم والشعوب سائرة من الكهوف الى الصروح ولكنني لم أر للآن غير رقاب منحنية تحت الاثقال ، وسواعد موثوقة بالسلاسل وركب جاثية أمام الاصنام . قد اتبعت الانسان من بابل الى باريس ومن نينوى الى نيويورك ورأيت آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار أقدامه ، وسمعت الاودية والغابات تردد صدى ارواح الاجيال والقرون . دخلت القصور والمعاهد والهياكل ووقفت حـــذاء العروش والمذابح والمنابر ، فرأيت العامـل عبداً للتاجر ، والتاجر عبداً للجندي ، والجندي عبدا للحاكم ، والحـــاكم عبداً للملك والملك عبداً للكاهن ، والكاهن عبداً للصنم ـ والصنم تراب جبلته الشياطين ونصبتـه فوق رابية من جماجم الاموات . اتبعت الاجيال من ضفـاف الكنج الى شاطيء الفرات الى مصب النيل الى جبل سينا الى ساحات أثينا الى كنائس روما الى أزقة القسطنطينية الى بنايات لندن ، فرأيت العبودية تسير بكل

مكان في موكب العظمة والجلال ، والناس ينحرون الفتيان والعذارى على مذابحها ويدعونها آلهاً ... ولما تعبت من ملاحقة الاجيال ومللت النظر الى مواكب الشعوب والامم ، جلست وحيداً في وادي الاشباح حيث تختبيء خيالات الازمنة الغابرة وتربض ارواح الازمنة الآتية :

هناك رأيت شبحاً هزيلاً يسير منفرداً محدقاً بوجه الشمس فسألته : من أنت وما اسمك ؟ قال : اسمي الحرية — قلت : وأين ابناؤك ؟ قال : واحد مات مصلوباً وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعد . ثم توارى عن عيني وراء الضباب .

أيها الليل

واتابع البحث على مسمعيك يا قارئي العزيز من هذه الحكمة الرائعة والفلسفة الجبرانية المقدسة وعظاته السامية وعبره الحكيمة ، فاسمعه يخاطب الليل :

انت ظلام يرينا أنوار السماء والنهار نوراً يغمرنا بظلمة الارض . أنت امل يفتح بصائرنا امام هيبة اللانهاية ، والنهار غرور يوقفنا كالعميان في عالم المقاييس والكمية . في ظلالك تدبُّ عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الانبياء وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين فأنت ملقن الشعراء والموحي الى الانبياء ، الموعز الى المفكرين والمتأملين ... انا ليل مسترسل منبسط هاديء ، مضطرب وليس لظلمتي بدء وليس لاعماقي نهاية . فاذا ما انتصبت الارواح متباهية بنور افراحها تتعالى روحي متجمدة بظلام كآبتها . انا مثلك ايها الليل ولن يأتي صباحي حتى ينتهي أجلي ...

ودونك بعض مقتطفات من مقال عنوانه .

قبل الانتحار

الحياة امرأة ساحرة حسناء تستهوي قلوبنا وتستغوي ارواحنا وتغمر وجداننا بالوعود ، فان امطلت اماتت فينا الصبر ، وان ابرّت ايقظت فينا الملل . الحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها . الحياة امرأة ترتدي بالايام البيضاء المبطنة بالليالي السوداء . الحياة امرأة ترضى بالقلب البشري خليلًا وتأباه حليلًا . الحياة امرأة عاهرة ولكنها جميلة ومن ير عهرها يكره جمالها .

ومن حكمه الخالدة الفلسفية

منذ سبعين الف سنة مررت بكم فرأيتكم تتقلبون كالحشرات في زوايا الكهوف . ومنذ سبع دقائق نظرت من وراء بلور نافذتي ، فوجدتكم تسيرون في الازقة القذرة وأبالسة الخمول تقودكم وقيود العبودية تتمسك بأقدامكم واجنحة الموت تصفق فوق رؤوسكم . فانتم اليوم كما كنتم بالامس، وستظلون غداً وبعده مثلما رأيتكم في البدء .. كنا بالامس فأصبحنا اليوم وهذا ناموس الآلهة يا ابناء الآلهة فما هي سنّة القرود بكم يا ابناء القرود ؟

المخدّرات والمباضع

من أقواله الحكمية المثالية الرائعة لنا حيث يقول : يقول الناس عني وهم مصيبون. فأنا متطرف حتى الجنون واكتب لافسد اخلاق الناشئة ، وعدو الانسانية ومقوّض اركان العائلة ، وهادم مباني الجامعة البشرية ، وفوضوي

كافر ملحد . هذا يقوله ابناء وخلفاء قيافا الطغاة للناس الجهـــال الاغبياء وجماعاتهم... بأن ينبذوا تعاليمي ويحرقوا مؤلفاتي لانها السم في الدسم... نعم انا متطرف حتى الجنون ، أَميل الى الهدم ميــلي الى البناء ، وفي قلبي كره لما يقدسه الناس ... وحب لما يأبونه ، ولو كان بامكاني استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة . اما قول بعضهم انّ كتاباتي « سم في دسم » فكلام يبين الحقيقة من وراء نقاب كثيف . فالحقيقة العارية هي انني لا امزج السم في الدسم ، بل أسكبه صرفاً ... غير انني اسكبه في كؤوس نظيفة شفافة . اما الذين يعتذرون عني امام نفوسهم قائلــين : هو خيالي يسبح مرفرفاً بين الغيوم ، فهم الذين يحدقون بلمعـــان تلك الكؤوس الشفافة منصرفين عما في داخلها من الشراب الذي يدعونه « سماً » لان معدهم الضعيفة لا تهضمه . قد تدل هذه التؤطئة على الوقاحة الخشنــة ولكن أليست الوقاحة بخشونتها افضل من الخباثة بنعومتها ؟ انّ الوقاحة تظهر نفسها بنفسها. اما الخباثة فترتدي بملابس فصلت لغيرها . انّ الشرقيين يحبّون العسل ولا يستطيبون سواه مأ كلًا . وقد افرطوا بالتهامـه حتى تحوّلت نفوسهم الى عسل تسيل امام النار ولا تتجمّد الاّ اذا وضعت على الثلج . يطلب الشرقيون من المفكر ان يعيد على مسامعهم مـا قاله بيدبا وابن رشد وافرام السرياني ويوحنا الدمشقي .

والا يتعدى بكتابته حدود الوعظ البليد والارشاد السقيم ومـا يجيء بينهما من الحكم والآيات التي اذا ما تمشى عليهـــا الفرد كانت حياته كالاعشاب الضئيلة التي تنبت في الظل ونفسه كالماء الفاتر الممزوج بقليــل من الافيون .

— وإليك أمثلة رائعة سامية من تلك المخدّرات والمسكنات ، التي

يتخذها الاطباء الشرقيون لمعالجة الامراض العائلية والوطنية والدينية . . .

ينفر الرجل من زوجته لأسباب عائلية وضعية حيوية ، فيتخاصمان ويتضاربان وهلمّ جرا . . . ولكن لا يمر يوم وليلة حتى يجتمع اهل الرجل بأهل زوجته . فيتبادلوا الآراء المزخرفة وغيرها . . . لايجاد السلام بينهما بالمواعظ الملفقة والاقوال المزركشة . اخيراً يتمّ الصلح الوقتي . . . وما يلبثا قليلا حتى يزول الطلاء يبوخ تأثير المخدر فيعودان الى النفور والمقت ... والذين اوجدوا الصلح في المرة الاولى يوجدونه في المرة الثانية ، ومن يرتشف جرعة من المخدرات لايأتي شرب كأس دهاق . يتمرد قوم على حكومة ظالمة او على نظام قديم فيؤلفون جمعية اصلاحية ترمي الى النهوض والانعتاق ، فيخطبون ويكتبون وينشرون اللوائح والبرامج ويبعثون الوفود والممثلين . ولكن لا يمر شهر او شهران حتى نسمع بان الحكومة قد سجنت رئيس الجمعية او عهدت اليه بوظيفة . واما الجمعية الاصلاحية فلا نعود نسمع عنها شيئاً لان افرادها قد تجرعوا قليلاً من المخدرات ... وعادوا الى السكينة والسلام ـ يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوي فيقول له جاره :

اسكت فالعين التي تعاند السهم تفقر . يشك القروي بتقى الرهبان وإخلاصهم فيقول له زميله : اصمت فقد جاء في الكتاب اسمعوا اقوالهم ولا تفعلوا افعالهم .

يسأل الشاب مستفسراً معاني الزوائد الدينيه فيقول له الكاهن : من لا ينظر بعين الايمان لا يرى في هذا العالم سوى الضباب والدخان . فلهؤلاء الادباء المفكرين اقول : انا اندب الشرق لان الرقص امام نعش الميت جنون مطبق . فان كان هناك من يريد ان يبدل نوحي بالضحك

ويحول اشمئزازي الى الانعطاف وتطرفي الى الاعتدال ، فعليه ان يريني بين الشرقيين حاكماً عادلاً ومتشرعاً مستقيماً ورئيس دين يعمل بما يعلم وزوجاً ينظر الى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه .

ـ اعذرني يا قارئي العزيز ، ان اطلت عليك الشرح ، فلقد اسلفت لك القول عن الخوض في ميدان جبران الفيلسوف العالمي الاجتماعي الخالد .

ولو جئت لانقل اليك ما دبجه يراعه الملهم لاقتضى لي مجلدات ضخمة شاسعة كما تعلم أو تسمع .

ولا بدّ لك من أن تكون قد اطلعت عليها . ولكن قد ذكرت لك منها هنا بعض شذرات ذهبية مثالية عالية فلسفية إتماماً للفائدة المبتغاة واعذرني ان شئت ، فالعذر من شيم الكرام ... وها انا انقل لك ايضاً بعض آيات حكمية ومقتطفات شذية من المقال الذي وعدتك به في أول هذا الدرس عن جبراننا النابغة وهو :

مات اهلي

حيث يندب جبران أهله وأصحابه وذويه وابناء لبنان الاعزاء الذين حلت بهم جميعهم تلك النكبة الخرساء والفاجعة الأليمة الدامية التي نزلت بهم جميعاً وهو بعيد عنهم اثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ حيث يقول: كأني به كارميا النبي يبكي أورشليمه :

مات اهلي وانا على قيد الحياة أندب اهلي في وحدتي وانفرادي . مات أحبائي وقد اصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم. مات اهلي جائعين ومن لم يمت منهم جوعاً قضى بحدّ السيف . وانا في هذه البلاد القصيّة اسير بين قوم فرحين مغبوطين يتناولون المآكل الشهية والمشارب الطيبة وينامون

على الاسرة الناعمة ويضحكون للايام والايام تضحك لهم .

مات اهلي وأحبائي اذلَّ ميتة وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادي ، وأنا ههنا اعيش في رغد وسلام . وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح نفسي . وماذا يقدر المنفي البعيد أن يفعل لأهله ولهؤلاء الجائعين . ليت شعري . ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه ؟ نعم ان نكبة بلادي نكبة خرساء . نكبة بلادي جريمة حبلت بها رؤوس الافاعي والثعابين . نكبة بلادي مأساة بغير اناشيد ولا مشاهد ـ مات اهلي على الصليب . ماتوا واكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدّقة بسواد الفضاء . ماتوا لأنهم كانوا مسالمين . ماتوا جوعاً في الارض التي تدرُّ لبناً وعسلاً . ماتوا لانّ الافاعي ابنـــاء الافاعي قد نفثوا السموم في الفضاء الذي كانت تملؤه انفاس الارز وعطور الورد والياسمين . . .

واسمح لي ايضاً ان اختم هـذا الدرس الفلسفي المنطقي طاوياً صفحات خالدة ناصعة وعظات ناجعة وعبر حكميّة عن (صاحب النبي) مقدماً لك خاتمـة مجيدة وامثولة حكيمة عن حيـاة الشاعر بقلمه السيّال وخياله الرائع البديع حيث انّ الانسان غريب في هذه الحياة . كما جاء عن صاحب المزامير « الملك النبي » قائلاً معـه جبران العبقري الخالد الذي طالما قـد تشبع من نبؤته الالهية ومن سائر الانبياء الملهمين . . .

الشاعر

انا غريب في هذا العالم . . . انا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة ، غير انها تجعلني ان أُفكر ابداً بوطن سحري لا اعرفه ، وتمـــلأ احلامي بأشباح ارض قصية ما رأتها عيني . انا غريب عن اهلي وخلاني . انا

غريب عن نفسي... انا غريب عن جسدي . انا غريب وقد جبت مشارق الارض ومغاربها ، فلم اجد مسقط راسي ولقيت من يعرفني ولا من يسمع لي... انا غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي ـ انا غريب في هـذا العالم ـ انا شاعر انظم ما تنظمه ، ولهذا انا غريب وسأبقى غريباً حتى تخطفني المنايا وتحملني الى وطني...

قلنا لك وقد وعدناك ايها القاريء الحبيب انّ جبراننا هذا لفيلسوف ملهم خالد في سفر الاجيال والانبياء وليس جبران فقط ناثراً عظيماً وملهما كما رأيت وقرأت وسمعت فحسب، بل انه وان لم يكن قد مارس القريض وانصرف اليه نظير أولئك الشعراء ، او احترفوه وما شابـــه ذلك . أما جبران فقد نظم وانتظم في هذا الميدان الشاسع وخاض بـه جواده الساق المدرَّب وكان له فيه جولات وجولات ، وان تكن يسيرة ولكنها سباقة الى العلى والمجد ، فاذا به قد نال غار الانتصار . كما قد سبق القول في كتابه « المواكب » الذي ضمنه شعراً فلسفيا رائعاً ومنطقا طبيعياً فحلق بـه . عدا ما له من قصائد رائعة خيالية جميلة التعبير والسبك البياني البديع فيبان لك الصريح عن الرغوة كما ترى وتقرأ ...

سكوتي انشاد

سكوتيَ إنشاد وجوعيَ تخمـة — وفي عطشي ماء وفي صحوتي سكرُ
وفي لوعتي عرس وفي غربتي لقـاً — وفي باطني كشف وفي مظهري ستر
وكم اشتكي هماً وقلبي مفاخر — بهمي وكم ابكي وثغريَ يفـــتر
وكم ارتجي خلًا وخـــلي بجانبي — وكم ابتغي أمراً وفي حوزتي الامر
وقد ينثر الليـل البهيم منازعي — على بسط أحلامي فيجمعها الفجر

فبي من براني والذي مدّ فسحتي وبي الموت والمثوى وبي البعث والنشر
فلو لم اكن حياً لما كنت مائتاً ولولا مرام النفس ما رامني القبر
ولما سألت النفس ما الدهر فاعل بحشد أمانينا أجابت أنا الدهر

يا نفس

يا نفس لولا مطمعي بالخلد ما كنت اعي
لحناً تغنينا الدهور
بل كنت انهي حاضري قسراً فيغدو ظاهري
سراً تواريه القبور
يا نفس ما العيش سوى ليــل اذا جنّ انتهى
بالفجر ، والفجر يدوم
وفي ظما قلبي دليل على وجود السلسبيل
في جرة الموت الرحوم
يا نفس ان قال الجهول الروح كالجسم تزول
وما يزول لا يعود
قولي له انّ الزهور تمضي ولكنّ البزور
تبقى وذاكنه الخلود

أغنيّة الليل

سكن الليل وفي ثوب السكون تختبي الاحلام
وسعى البــدر وللبدر عيون ترصد الايام

فتعالي يا ابنة الحقل نزور كرمة العشاق
علّنا نطفي بذياك العصير حرقة الاشواق

اسمعي البلبل ما بين الحقول يسكب الالحان
في فضاء نفخت فيه التلول نسمة الريحان

لا تخافي يا فتاتي فالنجوم تكتم الاخبار
وضباب الليل في تلك الكروم يحجب الاسرار

الشحرور

أيها الشحرور غرّد فالغنا سرُّ الوجود
ليتني مثلك حرّاً من سجون وقيود

ليتني مثلك روحاً في فضا الوادي أطير
أشرب النور مداما في كؤوس من أثير

ليتني مثلك طهرا واقتناعاً ورضى
معرضا عما سيأتي غافلاً عما مضى

ليتني مثلك ظرفاً وجمالاً وبها
تبسط الريح جناحي كي يوشيه الندى

ليتني مثلك فكراً سابحاً فوق الهضاب
أسكب الانغام عفواً بين غاب وسحاب

ايها الشحرور غنّ واصرف الأشجان عني
انّ في صوتك صوتاً نافخاً في أذن أذني

اذا غزلتم

اذا غزلتم حول يومي الظنونْ وان حبكتم حول ليلي الملامْ
فلن تدكوا برج صبري الحصين ولن تزيلوا من كؤوسي المدام
ففي حياتي منزل للسكون وفي فؤادي معبد للسلام
ومن تغذّى من طعام المنون لا يختشي من ان يذوق المنام

الشهرة

كتبت في الجزر سطرا على الرمل
أودعته كل روحي مع العقل
وعدت في المدّ اقرا واستجلي
فلم اجد في الشواطي سوى جهلي

بالأمس

كان لي بالأمس قلب فقضى وأراحَ الناس منه واستراحْ
ذاك عهد من حياتي قد مضى بين تشبيب وشكوى ونواح

ليت شعري هل لِما مرّ رجوعْ أو معاد لحبيبٍ وأليفْ
هل لنفسي يقظة بعد الهجوع لتريني وجه ماضيّ المخيف

هل يعي ايلول انغام الربيع وعلى اذنيه اوراق الخريف
لا ولا بعث لقلبي او نشور لا ولا يخضرّ عود المحفل
ويدُ الحصّاد لا تحيي الزهور بعد ان تبرى بحدّ المنجل

شاختِ الروحُ بجسمي وغدتْ لا ترى غير خيالات السنينْ
فاذا الاميال في صدري فشت فبعكّاز اصطبارك تستعين
والتوت مني الاماني وانحنت قبل ان ابلغ حدّ الاربعين
تلك حالي فاذا قالت رحيل : ماعسى حلّ به قولوا: الجنون
واذا قالت : أيشفى ويزول ما بهِ ? قولوا: ستشفيهِ المنون

لقد نفحتك أيها القاريء العزيز بشذرات ذهبية غالية نادرة ، وامثال حكمية ، وعبر منطقيه من يراع « جبران » السيّال الساحر ، وخياله الصافي العبقري الملهم من الشعر العلوي . فتحكم بعد الامعان والروية فيه بالصواب . من انّ جبران هذا ليس فقط اديباً ناثرا ، فيلسوفاً عبقريا ، كاتبا خيالياً رائعاً ساحراً فحسب ، بل شاعراً ملهماً خيالياً ساحراً حساساً فيه روعة الجمال الطبيعي والفن البديع ، والحقيقة الناصعة . ونختم الدرس عن نابغتنا اللبناني العبقري ، والفيلسوف الملهم الخالد وامير البيان ورب البلاغة وسيد الفصاحة ، وإمام الكتاب والادباء .

هذا هو « جبران خليل جبران » قد وضعناه نصب عينيك لتغرف من بحره الشاسع ، وترتوي من ينبوعه الفياض الصافي العذب ، وتتنسم بنسماته اللطيفة الناعمة الشذية . وتسير على هدى خطاه السديدة واناجيله الملهمة العلوية ، وتبجن في ذهنك تعاليمه الصادقة وتنقش على صفحات صدرك باحرف من نور من صميم صفحاته النورانية الخالدة محدقاً بالشمس الى ما وراء ذلك الافق البعيد ، لترى ذلك الروح العلوي الطاهر . الافلنحن بخشوع إجلالاً وتكرمة امام تلك الروح الطاهرة الصافية المباركة العذبة السابحة في ذلك العالم النوراني اللامتناهي .

أمين الريحاني

« ١٨٧٦ – ١٩٤٠ م »



حياته

اذا تبادر الى الذهن اسم «الريحاني» حـالاً تتحفّز فينـا يقظة التشوق الى التحدُّث والاستزادة عن هذا العبقري الكبير ونرهـف الاسماع تنبيهـاً وإحساساً لاستيعاب الذاكرة من تساقط حلو الحديث عن ذكر رجل مفكر عظيم واديب فذ ملاء اسمه القطرين، بذلك الدماغ الكبير المنتج، والذكاء الخارق المتدفق من مصـدر الينبوع اللبناني المشرق من روعة هذا الجبل الاشمّ، مهبط الوحي والالهام والسحر والجمال والخيال، وموطن النبوغ والنبوأت والاشعـاع الفكري الثاقب المتدفق وعياً ونبوغاً وذكاء وعبقرية ورقياً من ينابيعـه الغزيرة الفياضة، وصفاء سمائه، ورقة نسيمه، المتضوع شذا ارزه الخـالد حيث توحي الجمال السحري وتفيض العبقرية والخيال الرائع البديـع في حنايا القلوب، وتلافيف الدماغ، فتخرج من خلال يراع الكاتب الاديب والعبقري

الفذّ بدائع وطرائف في الادب الناضج المتين والحياة التاريخية والفلسفة الاجتماعية فيحتل الاديب العلامة المكانة المرموقة مالكاً زمام الفصاحة ومرمى البلاغة محتلاً عرش القلوب . فاذا هو صدى بعيد في آذان الاجيال، وانشودة سحرية عذبة رقيقة في فم الزمن . اجل . انّ اسم الريحاني يحتل في مصاف الادباء الاعلام والكتاب العظماء منزلة سامية كما شهد ويشهد الملا اجمع بما تركه من اثر نفيس وتراث مجيد ثمرة ذلك الدماغ المفكر الكبير . انه لشاهد عدل ينطق بالحق الصريح والدليل الفصيح من امجاد وعظائم خالدة ناطقة خاشعة امام الفكر اللبناني الثاقب ، والقلب النابض بالنبوغ والقيم والجهاد والكفاح في خدمة الحرية الفكرية الادبية وجلائل الاعمال لخدمة الانسانية ، مما انبجس من ذلك العقل النير الكبير من اشعاع فكري في حقل الادب الخصيب الشاسع .

هذا هو « امين الريحاني » المعروف بفيلسوف الفريكة . ونبدي لك يا قارئي العزيز نبذة وجيزة للارشاد والاستطلاع ، لماذا سمي « فيلسوف الفريكة » قبل الخوض في ميدان البحث عن حياته المليئة بالعظائم والاعجاب والاعمال الانسانية الحقة السامية الدأب والمرمى والاصلاح الفكري والأدبي والاقليمي ، بالتفصيل .

نعم . لقد نمي الى كاتب سيرة حياته هذه ومنهاجه العلمي الادبي . عندما لمع نجم « أمين الريحاني » في سماء الادب بعيداً مرسلاً سطوعه في الافاق الشاسعة ما بين الاندية الادبية الراقية محتلا منصتها العالية لدى زملائها الادباء المشهورين . اذا باسم الريحاني ينتقل كتيار كهربائي شذي ندي مالئاً الاسماع ، فبلغ صداه العذب الى احد كهنة الجزويت ، « لويس شيخو » المهتدي بعرفه وعرف من لفّ لفّهم . الى الحظيرة المقدسة ليضمن

كل فرد بشري حيث يبتغي خلاص نفسه ، جنة الخلود والسعادة الابدية والافراح الازلية — والا من كان خارجاً عن حظيرته « المقدسة » عُدّ كافراً هرطوقيا مصيره الهلاك الابدي فهذا الكاهن الكلداني المهتدي بنعمة الله « الهه » اراد ان يعرف عن اسم هـــذا الاديب الكبير اللبناني « امين الريحاني » — من هو هذا ، وما هي منزلته الادبيـة ، وأنى له هذا المقام السامي الذي احتله بين زملائه الادباء ، ومن أي بلدة او قرية من جبـل لبنان ؟ — ومن ثمّ بعد ان بحث ودقق منقبا باحثا عن سر حياته ونواحيهـا وشهرته الواسعة في عالم الادب. اهتدى الى الفريكة القرية الصغيرة الوادعة مهبط النبوغ الاميني . وقد فاته ان القرية الصغيرة طالما نبت منها الرجـال العظام العباقرة والادباء الكبار الخالدون في عرف التاريخ وبطون الاجيال. فقال ساخراً مستهزئاً . ثم من الفريكة ، الفريكة يخرج رجل عبقري فذ، واديب كبير وفيلسوف ؟ من هو هذا الفيلسوف الفريكي ؟ وأخذ صاحبنا « المهتدي » شيخو يستمر متهكما بالاديب اللبناني النابغ والكاتب العبقري والفيلسوف الحقيقي .

فكان « فيلسوف الفريكة » كالاسد الرابض في عرينـــه وكان الاب شيخو يحـاول الدنو من ذلك العرين متهكما ساخراً هازئاً ، ولكنه لا يستطيع الولوج الى داخل العرين الحصين الجبار . هاك يا قارئي اللبيب قصة فيلسوف الفريكة مع صاحبنا شيخو . فانّ تهكم وسخرية لويس شيخو الابن الشاطر ، وتهجّمه عـــلى أديبنا الكبير وعلامتنا الفيلسوف الريحاني غير ان الريحاني لم يكترث بل واصل جهوده الادبية الخارقة ، لم يكن سوى من باب الحظ من مقامه حتى أضحى هذا اللقب في عرف ادباءنا الكبار لقباً حقيقياً جديراً بحامل لوائه مشهوراً في الشرق والغرب معـاً عندما يذكر

اسم الريحاني الكبير الفيلسوف اللبناني العبقري ، والمفكر الناضج ـ وبعد ان المعنا لك ايها الباحث الكريم منوهين بديباجة في صدر هذا البحث الادبي التاريخي عن فيلسوف الفريكةالعبقري نخوض في يمّ حياته الشاسع معرّفينه الى الطالب النجيب .

هنالك في تلك المنطقة الصغيرة الوادعة الرابضة في سفح جبل من اعمال جبل لبنان من قضاء المتن غربي قصبة بيت شباب ، قرية تعلو عن سطح البحر خمس مئة متر تدعى « الفريكة » انبتت عبقرياً فيلسوفاً نابهاً ، ذكياً ، مفكراً نابغاً طفلاً يدعى « امين الريحاني » في سنة ١٨٧٦ . وُلد هذا الطفل النجيب وتفتحت عيناه الى هذا الوجود وترعرع تحت سماء لبنان الصافية الاديم الهادي الهانئ الصافي وامتزجت نفحاته الحلوة وزقزقاته الناعمة العذبة مع هينمات نسيمها ونسيم لبناننا البليل المعطر بشذا الارز الفواح وروائح اشجار الصنوبر والسنديان وزهور بساتينه الزكية ونفحات جداوله الساحرة وزقزقات طيوره الناعمة الثملة ، حيث تكتنفه رعاية الوالدين بجنانهما الوديع ، وهو بكرهما يبالغان بسهرهما على فلذتها العزيزة . وكان ينمو وينشأ ويترعرع في جو ناقٍ وحنان صاف الى ان اشرف على مناغاته اللذيذة ودرج لسانه على النطق آخذاً في النمو والتسلق رويداً رويداً في الكلام ميالاً بما كان يبدو على قسمات وجهه من شمائل الذكاء وعلائم النجابة ومخائل الفطنة ممّا تُوسّم فيه الامل الكبير فيما يسطع من ثاقب عينيه من الرصانة والنجابة ورجاحة العقل والوعي .

فكان امين الطفل اليافع حديث القرية الشاغل بلطفه وتهذيبه وهدوئه ونبوغه بين جميع اقرانه محتلاً منبر الكلام كأنه خطيب بينهم . فاحبوه حباً جمّا لما كان ينثره عليهم من الكلام والاقاصيص الرائعة اللطيفة .

فتعشقوه ولآزموه وكان امين كالقائد بين اخوانه الجنود اولاد قريته ، وفي مدرسة الضيعة حيث تلقن مبادىء القراءة العربية والكرشونية الاحرف ، السريانية والفرنسية على طريقة ذلك العهد . وانتقل بعدها الى مدرسة اعلى بجوار قريته تدعى «قرنةشهوان» . فأكب عندئذٍ امين على الدروس بما عرف عنه من نشاط واجتهاد وسهر في تحصيل العلوم العالية وما كان ينزع اليه من الطموح الى مستقبل زاهر باسم وشهرة واسعة في قرارة نفسه الابيّة ـ وما ان بلغ او قارب الى سنّ الثالثة او الرابعة عشرة حتى اضطرته الاحوال الى ترك لبنان ومرافقة عمه الى الولايات المتحدة الاميركية . وهنالك في تلك الديار النائية لم تصرفه عن منع ارتياده وارتوائه من مورد العلم الغزير وطموح نفسه الوثابة الى نيل المجد والكرامة عن هذا الطريق البعيد الشوط فأخذ يدرس مواصلاً بجدّ واعتناء اللغة الانجليزية حتى تضلّع منها . ثم اخذ يعاون عمه في التجارة . وفي اثناء عمله هـذا ما كان ينسى قط وما انفك عن مطالعة الكتب القيّمة لاشهر مؤلفيها من الانكليز ـ خاصة الشاعر الكبير « شكسبير » فقد شغف به جدًّا ـ واراد ان ينهي دروسه العالية ويروي ظمأ نفسهِ الطموحة الى هدفها السامي . فدخل مدرسة الحقوق في جامعة نيويورك المشهورة . وما لبث ان عاكسه الحظ لانجاز علومه الفقهية العالية ، وساءت صحته فانقطع عن متابعة دروسه . وأخذ فيما بعد ينشر المقالات القيّمة في الصحف والمجلات الانكليزية ، فلفت اليه الانظار باعجاب . ومن هذا اللبناني النزيل في ارض المهجر يحرر بلغة شكسبير بمثل هـذه الروعة الصافية والمتانة الكتابية والخيال البديع ? ـ هكذا كان فيلسوف الفريكة اللبناني الشهير محتلاً منزلة رفيعة في قلوب اولئك الاجانب النازل في عقر ديارهم ـ ولا غرو بما قد احتل اللبناني النابغ الشهرة الواسعة أينما وحيثما

وجد ـ وعاد أمين الى لبنان مستشفيا حيث قضى في ربوعه الجميلة الساحرة الموحية السحر والجمال والنبوغ مدة عكف في خلالها على الدرس والتضلع والتعمق من لغته العربية ، فاصبح بعدئذ الكاتب الاريحي العبقري المشار اليه في مصاف اولئك العباقرة البارزين السباقين الى تسنم ذرى المجد والسؤدد في عالم الادب وحجته. فاشرأبت اليه الاعناق وحدّقت اليه الانظار وصار ملء الاحداق اعجابا . وترجم « لزوميات » المعرّي الفيلسوف الى اللغة الانجليزية شعراً . هذا الكتاب الفلسفي النفيس كما هو معروف عنه الذي تركه فيلسوف المعرّة تراثاً مجيداً للعالم الادبي .

لذا قد نال الريحاني الفيلسوف العبقري وسام الشهرة العظيم البعيد الاثر في مسامع الادباء والعلماء بترجمته كتاب المعري هذا وطبعته على نفقتها شركة اميركية لما له من المكانة الادبية الرائعة مكافأة للاديب اللبناني الفيلسوف ـ وفي خلال هذه الفترات كان يتنقل بين وطنه لبنان والبلاد الاميركية دائباً مجداً في التصنيف والتأليف ونشر المقالات في المجلات والصحف العربية والانجليزية . وكان من طبعه حب الاسفار على حد قول المثل الحكيم يجوب الاقطار العربية والمغربية حيث يتصل بزعمائها وامرائها وقادة الفكر مبشرا بفلسفة الشرق واشعاعه ونبوغه حاملا رسالته الواعية الثاقبة وامجاده التاريخية الى ابناء الغرب محاضراً خطيباً مفوها يرسل صوته البعيد النافخ في بوق الحرية جريئاً قوياً مجاهداً في سبيل احقاق الحق واستقامة نصابه رافعاً منارة العلم من على شاطىء الاستقلال القومي الوطني يقدس الحرية المطلقة باثاً معلماً بروح الجندي الامين الذائد عن حياض وطنه المقدس . فسقط بعد جهاده المقدس وكفاحه المتواصل في ميدان الحرية تحت سماء هذا الشرق المبارك وفي ارض آبائه وأجداده شهيد

الحرية المحبوبة الشهيدة ، طالما قد جاهد في سبيل إعلائها واعزازها ورفع منارها ، فضفرت على رأسه السامي الذي طالما صدر عنه النبوغ اللامع والنضوج الساطع والتفكير العميق لاجل بث رسالة الحق والعدل والحرية بين الشعوب ، اكليل غار الانتصار والمحبة جزاء كفاحه وثوابه . نعم رقد « امين الريحاني » فيلسوف الفريكة واديب لبنان ونابغته الكبير الخالد وحبيبه البار وفتاه الاغر على غرار زميله الجبار الابن البار فتى الارز « جبران » النبي . في فريكته المحبوبة الوادعة التذكارية في ١٣ ايلول سنة ١٩٤٠ . وقد كان المصاب أليماً فاجعاً جداً وخطباً جليلاً ورزءاً فادحاً ومأساة خرساء قد المت بأسرته والادب معاً ودكت صرحه وقوّضت أسسه ، وأدمت قلوب آله وذويه ومحبيه ومعارفيه جميعاً . فنزحت الدموع غزاراً على ركن من اركان البلاغة والفصاحة ، وفيلسوف عبقري ورسول امين طالما قد بشر برسالة الحق الناصعة وروح التضامن نافخاً ببوق الحرية المباركة والاستقلال التام لهذا الشرق الرازح تحت نير الاستعمار الاجنبي الثقيل . وكان لا يزال بعد ملء بردتيه النشاط والجهاد والكفاح . ولكنّ يد الايام القاسية الجائرة امتدت اليه فألقته دون هوادة ولا شفقة فسقط صريعاً متألماً بحادثة اليمة في نزهته قرب الفريكه عن دراجة ، ولم تمهله إلا بضعة ايام قليلة . فانطفأ ذلك السراج الوهاج الكبير المعنى المرسل انواره الساطعة البعيدة ليهتدي بنوره القوي كل من يؤم الى شاطيء الحرية والامان بسلام . ورقد « امينا المحبوب » المأسوف عليه كثيراً في تربة « الفريكه » المباركة فاطمأنت رفاته مع رفات آبائه واجداده .

ولكن امين لم يزل ابداً حيًّا في قلوب آله ومحبّيه ومعارفيه ومقدّري

قدره بما تركه وخلّده من الآثار والامجاد الحافلة النفيسة من دماغه المفكّر الكبير الخالد...

شخصيّته

لو جئنا ودققنا جلياً في حياة اديبنا الكبير الريحاني الخـــالد في آثاره النفيسة التي املاها ذلك الدماغ المفكر وحبَّرها بدماء قلبه النابض بالاخلاص التام والتضحية الكبرى في سبيل الخير وسطرها يراعه السيال، لتبيَّن للقاريء اللبيب من خلال هذه الدرر الغوالي شخصية « فيلسوف الفريكة » — هـذا الرجـل العبقري الذي كان نموذج الاخلاص والبساطـة واللطف في حيـاته الوادعة ، محبًّا للجميع على السواء لا فرق عنده بين غني وفقير بعيداً عن الصلف والعجرفة والادعاء يفتخر بلبنانيته السمحاء الحقة . كان الرجل المثالي الوديع الاخلاق ، اللطيف المعشر – يكره حب الظهور ، صادق المبدا خليل الجميع مهما عظم وانخفض شأن الانسان اخيه ، فهو يحبه في السراء والضراء ولا يزال أخاه مخلصاً له في جميع اطواره . سمح الخلق ، لين الطباع ، بشوش الوجه ، كريم الاخلاق زاهداً في دنياه عن مطامعها الا عن محبة خالقه ، واخوانه عيـال الله – لذا كما قـد عرف انه مات فقيراً رغم غنـاه العقلي الوفير حيث جميع هذه كلها ما كان يملك في جيبه عند وفاته ما يسدُّ بهِ حاجته ، متصوّفاً في حياته المثالية بعيداً عن التقاليد البالية البشرية الزائفة . يحب الحرية المطلقـة ويقدّسها مجاهداً في سبيـل استقلال وطنـه والذود عن حياضهِ لحريتهِ التامة . رفع مناره من على منارة الحق وإشعاعه حـلو الحديث ، عذب الكلام وديعاً متواضعاً ، سلس الطبع ، كريماً الى الغاية حتى اذا صُودف ومرَّ بهِ فقير مستعطياً وليس معه ما ينقده اياه يعطيه

ثوبه كما قد حدث ذلك عنه ، على ما رواه بعض أقاربه واخصائه ، بعيداً عن محبة المال ، عاملاً بموجب تعاليم الناصري الذي كان يقدّسها ـ وعقيدته انه يؤمن بالله ، والناس جميعهم اخوة . ولا يحب الانضمام تحت الوية الجمعيات والتقيّد في قوانينها وانظمتها ، بعد ان عجم ومحّص ونقب جيداً على مجهر الحياة الاجتماعية فرأى أولئك الرسل الحاملين بشارة انجيل الناصري للعالم كما قال لهم : انه قد وجد بوناً شاسعاً بين هاتين الرسالتين . رسالة الناصري ، ورسالتهم العالمية الدنيوية البحتة. فحوّل ظهره عنهم ومال الى التمسك بنفسه الحرة المثالية سائراً على مبادىء من كان نورالعالم بدستور تعاليمه المقدسة. كأني به قال لهم مع زميله الفيلسوف الهندي الكبير الخالد بحيانه المثالية السامية ومبادئه المستقيمة غاندي: « خذوا مسيحيتكم واعطوني مسيحكم » ـ لذا قالوا عن الريحاني انه كافر ملحد نظير رفيقه وزميله « جبران » ومن لفّ لفهم في عرفهم لانه لا يدين ولم يخضع خضوعاً أعمى ذليلا خانعاً لهم ـ هذا هو الريحاني بشخصيته الرجل الوديع النزيه في حياته الوديعة ، المسالم اللطيف الزاهد في دنياه « نظيرهم ... » اللبناني الحر الراقي المثالي الذي جمع الى شخصه المحبوب الكريم المحتد . وكان وجه لبنان المشرق من على شواطئه التي طالما قد انبثق منها نور الحضارات والتمدن والفنون الى العوالم النائية. فحمل هو بدوره مشعل التمدن والعلم والحضارة والثقافة كأجداده من على الشاطىء اللبناني معرفاً عن كثب وجه لبنانه الساطع الوسيم انى وحيثما حلّ ويمّم بعبقريته المشرقة المشهورة بالنبوغ اللبناني ـ وقد جاهد في رسالته العلمية الثقافية طيلة اربعين سنة يجوب الاقطار العربية والاروبية والاميركية باثاً روح النهضة التعاونية والاتحاد والتضامن محاضراً ساعيا ، جاداً بروح مثالي لا يعرف الكلل ولا الملل في

سبيل انجاح رسالته الثقافية وحريته التامة . ولا غرو ان سقط ذلك الجسم النحيل الهزيل تحت اعباء الجهود الجبارة والمساعي الكمالية والتكاتف بين ابناء هذا الشرق الرازح تحت كابوس الاستعباد ، للتحرر من ربقة الاستعمار البغيض. ولكم قد احتلّ من المناصب الرفيعة والكرامة لدى امراء وملوك واولياء ورؤساء الدول وانعموا عليه بالاوسمة الرفيعة والالقاب السامية « فرفضهـــا اي الالقاب » تواضعاً ـ نظراً لمنزلته الادبية الرفيعة ومقدرته العلمية الثقافية ، فعين عضوا في المجمع العلمي العربي في الشام ومثّله في عدة جمعيات ادبية راقية واندية علمية وكان يدعى من الفريكه ، الى الولايات المتحدة بمناسبات عديدة ليلقي محاضرات فيها وفي بلادنا واميركا ، وقد دون اسمه في دليل مشاهير الشخصيات في الولايات المتحدة وانكلترا . وعين رئيس شرف لمعهد الدراسات العربية في بلاد المغرب . ولما كان يقاوم الاستعمار خاصة في بلاده العزيزة ، فقد نفاه الكونت دي مارتيل المندوب الفرنسي من قبل دولته لحملة شنها ضدّ السياسة الفرنسية الاستعمارية سنة ١٩٣٣ . لذا ففي هذه المناسبة السانحة وجد فرصة اتيحت له للتعرف الى ملوك وامراء البلاد العربية ، وكان حيثما حلّ الضيف العزيز لدى بلاطهم . فاتصل بالملك عبد العزيز آل سعود آنذاك « رحمه الله » والملك غازي ملك العراق ، والامام يحيى ملك اليمن ، وفيصل الاول ملك العراق قبل وفاته « رحمات الله عليهم » ـ واتصل بشاه ايران واكرمه واعزّ وفادته لشهرته الواسعة ومكانته الادبية الرفيعة فأنعم عليه بوسام رفيع . وحدا به التطواف الى المغرب الاقصى ، فأنعم عليه ايضاً خليفته بوسام رفيع سنة ١٩٣٩ والجمهورية اللبنانية طالما لم يفتها اكرام وتقدير منزلة ابنها البار المخلص المجاهد الذي قد رفع اسم لبنان عالياً نظير زميله « جبران » امام الملوك والامراء

والرؤساء حاملا مشعل لبنان الثقافي الادبي ، العلمي السياسي ، فمنحته وسام الاستحقاق اللبناني المذهب من الدرجة الاولى — ولمكانة الريحاني الرفيعة العظيمة وشهرته البالغة في عالم الادب الرفيع ، وحنكته ومقدرته الاجتماعية السياسية ، والثقافية اراد الملك حسين منحه لقب امير ، كما قد جاء هذا عن بعض المؤرخين ، فاعتذر اتضاعاً — ... فتأمل ايهـــا القارىء ، بنموذج ومثال من قد رشقوه ولآحوا عليه بالكفر والالحاد — بتواضعه الحقيقي وبساطته وحياته كما قد عرفنا عنه جيداً — وتجرّده في الحياة وزخارفها وبهرجتها الزائفه — كما جاء ونقرأ في انجيل الناصري : كونوا ودعاء لانني وديع ومتواضع القلب . وان لم ترجعوا فتصيروا مثل طفل لن تدخلوا ملكوت السماوات . هذا هو امين الريحاني في عرف البعض ، الملحد الكافر ، واما في عرف ابناء الحق الاحرار المنعتقين من تلك التعاليم البالية البشرية ، فهو المؤمن الحقيقي الصادق في ايمانه ؟ انّ الريحاني لحيّ ، في ضمير ابناء الحرية والمعرفة الحقة ووجدانهم الصريح ونقاوة افكارهم وضمائرهم وقلوبهم ، وقد صحّ فيه قول الشاعر :

كم مات قوم وهم في الناس احياء   وعاش قوم وهم في الناس اموات

وقول الشيخ ناصيف اليازجي :

ليس من مات فاستراح بميت   انما الميت ميت الاحيـــاء

اجل . لقد عرفت جيداً يا قارئي الحبيب شخصية الريحاني . ألا فاعتبر بها واتعظ بهِ وخذ مثالاً صادقاً وقدوة سامية وعظة مثالية لحياتك .

مؤلفاته

لا غرو ان من كان « كالريحاني » الرجل الاديب الكبير ، والمفكر

العبقري ، ذلك الدماغ اللبناني الثاقب المتفوق الشهير الذي انبثق شعاعه الساطع البعيد المرمى من متفجرات وحي لبنان ، فأدهش الغرب والشرق معاً بهذا النبوغ الرفيع فاحتل المكانة الرفيعة المرموقة لدى اعظم مراتب الادباء البلغاء وأئمة اللغة وعباقرة الأدب والعلوم وفلاسفتها . إنّ ذكر اسمه خالد مدى الاجيال والاحقاب، لما خلده من عظائم وجلال وتراث انبجثت من دماغه الاريحي الثاقب وتفوّقه الخارق كما قـــد شهد له جهابذة الادب ومؤلفاته النفيسة القيمة الذي طوّق بها جيد الادب العربي والانكليزي معاً. اذ تنطق جميعها بآثار هذا النابغة الشرقي اللبناني الخالد .

تآليفه في اللغـة العربية : الريحانيات » التي سمَّاها باسمه الخالد الشذي . وهي ثمانية اجزاء ظهر منهـا اربعة وستتبعها الاربعـة الباقية التي هي قيـد الطبع وفي هذا الكتاب تتجلى لك شخصية الريحاني وعبقريته الفذة ونبوغه الثاقب وفلسفته في الحياة والاجتماع ووحي هـــذا الشرق الذي هو مهبط الوحي والالهام والنبؤآت والعبقرية « رغم الحساد » ـ موطن الجمـــال والسحر والفن، قد تجلى باسلوبه البديع الشائق اللذيذ ، والخطب والمحاضرات التي كان يلقيها في تجوّلاته في انحاء البلاد العربية واميركا نافخاً ببوق الحرية المطلقة المباركة في سبيل التحرُّر من قيود الاستعمار والتضامن والتعاون والتكاتف في سّلم الاستقلال التام ، ـ ملوك العرب ـ جزءان رحلات وتاريخ وسياسة وابحاث فيما قد رآه وسمعه خلال تجوابه في البلاد العربية وعوائدهم ومبادئهم واخلاقهم ومناحي حياتهم ممَّا قد دوّن في مؤلفاته هذه مضيفاً اليها في هذه الابحاث « تاريخ نجد الحديث » ـ وفيصل الاول ـ وقلب العراق ـ ممَّا قد شاهده عن كثب واطلع عليه فوضعه بدقة لبقة ورسمه بتفاصيل وكلام طبيعي حيّ كأنك أمام مشهد عياني . والمحالفة

الثلاثية . كتاب في الاجتماع والسياسة ، المكاري والكاهن . كتاب انتقادي كما يتبيَّن للقاريء من عنوانه — زنبقة الغور — رواية وقعت حوادثها في فلسطين وهي آية في الوصف والجمال الطبيعي الحيوي والاجتماعي . أنتم الشعراء — هو كتاب انتقادي حمل فيه على الشعراء المائعين الباكين كالنساء لانَّ البكاء خليق بالنساء . — التطرف والاصلاح — كتاب اجتماعي سياسي وفاء الزمان — النكبات — خارج الحريم . موجز تاريخ الثورة الفرنسية « ثلاث خطب . كلها في الاجتماع . المغرب الاقصى » . سجل التوبة — رسائل — قلب لبنان = هذا الاخير هو وصف رحلات في وطنه لبنان قام بها في اوائل الحرب العالمية الثانية وقبل وفاته بمدة حيث وصف ما تناوله نظره الثاقب من العادات اللبنانية وتقاليدهم المرعية باسلوب رشيق جذاب وكلام طريف . والفقيد العزيز لم ينجزه حيث عاجلته يدُ المنون الغاشمة . وقد طبعه شقيقه المحبوب بعد وفاته .

أمَّا تاليفه في اللغة الانجليزية اليكها : رباعيات المعري ، المرّ واللبان ، اللزوميات للمعري . كتاب خالد ، تحدّر البلشفية ، انشودة الصوفيين ، جادة الرؤيا ، ابن سعود ونجد ، حول الشواطيء العربية ، بلاد اليمن ، العراق . الملك فيصل « الاول » — دروس في الف ليلة وليلة . ماجده — كريمه . هذه هي آثار فيلسوف الفريكة التي تنطق بعظائم الريحاني العبقري اللآمع النابغة الخالد . كأني به يقول مع الشاعر العربي :

تلك آثارنا تدلُّ علينا   فانظروا بعدنا الى الآثار

الريحاني الكاتب العبقري

بعد ان عرفنا جيداً ، واتضح لنا جلياً من هذا البحث القيم عن اديبنا

الكبير وكاتبنا القدير الاجتماعي الواسع، والرحالة اللامع «فيلسوف الفريكة» ومدى تفكيره العميق، وصدى عبقريته الفذة البعيد، وفلسفته الكتابية التي انبثق شعاعها الساطع من سماء هذا البلد اللبناني مهبط الوحي والالهام وموحي النبوءات بسحره وجماله الرائع الفتان حاملاً الى الغرب رسالة الشرق معقل النبوغ والذكاء. فاذا بالريحاني تتلفّت اليه الانظار، وتشرأب اليه الاعناق باعجاب واندهاش كبيرين لهذا الرسول الامين الشرقي الحامل رسالة الحق والقوة المعنوية المنبثقة من ذلك الدماغ اللبناني النادر. وطالما قد عُرف شرقنا بهذه العبقريات الموحات، والصفات الممتازة، والحضارات والتمدُن والثقافات حيث ارسل شعاعها البعيد من على ساحله الى بلاد الغرب كما يشهد التاريخ الناطق بجلائل وعظائم هذه المعجزات الخارقة، فعانق الشرق الغرب معانقة الاخوة الصادقة بفضل أديبنا الكبير هـــذا وزملائه الكبار الادباء الفلاسفة، وهذه الوجوه الوضّاحة الميمونة، فكانوا الصلة القوية العرى. اذا بلبنان العريف يحتل المكانة الرفيعة المرموقة، يتسنم سدرة المنتهى في منزلته الادبية العالية كالكوكب الساطع في سماء الغرب تشير اليه الاصابع اعجاباً واكباراً، وافتخاراً في حقلي الادب والاجتماع برجالاته الذين انتشروا تحت كل كوكب. فأشرق نور نبوغهم الساطع في هاتيك البقاع والاصقاع. فكانوا كواكب ساطعة سطع نورهم الشعشاع في كل قطر نزلوه. فكانوا وجه لبنانهم الصادق المشرق في ديار غربتهم اعزازاً وفخراً ومجداً. فعرّفوهم ان الشرق هو رسالة الحق المنبثقة من سمائه المباركة وانه مهبط النبوغ والسحر والذكاء. وليس الغرب مهبط العبقريات والثقافات والحضارات. ولكي تعلموا القول المأثور الصريح: لا كرامة لنبي في وطنه — اجل. ان الريحاني قد فُطر على حب الحرية المطلقة والنزعة

الادبية الثقافية ، فنمت هذه المحبة الفطرية والمبادي القويمة في نفسه الكبيرة العزيزة، فطلبها في غير بلاد، فوجد ضالته حيث نمت نمواً عجيباً وازدهرت ازدهاراً سريعاً فائقاً ، وتفتقت عن اكمامها فضاع اريجها الزكي القوي في تلك البلاد الديمقراطية الحرة . فايقظ القلوب بهذا الاريج اللبناني الفواح من عبير الارز الشذي فتملكها وامتلكته . فاذا بالعبقري اللبناني الفريكي يتسنم عرش القلوب انى وحيثما حل . وكان صوته الحر القوي الداوي برنينه العذب مبشراً بالحرية المباركة التي طالما عشقها وقدسها منذ ان رات عيناه نور هذا الوجود . فكان كالبوق النافخ بصوت الحرية والاخاء وروح التضامن ونبذ التعصب الديني العقيم الذي يبشر به دعاته الرجعيون المستعمرون الغاشمون ـ مخالفاً اياهم بتعاليمه الصادقة ورسالته الحقة للتحرر من ربقة الاستعمار والجهل والخنوع ، والتكاتف الاخوي المخلص بين الشرق والغرب منادياً بالعدل والمساواة قائلاً : ان جنوناً في سبيل الحرية والحق لخير من الرصانة مع العبودية ـ لذلك حمل عليه رجال الدين ناقمين ثائرين كالحطفة ، كما حملوا سابقاً ونقموا على زميله النابغة الفيلسوف « جبران خليل جبران » حاملين ناقمين ثائرين يصلون حرباً سجالاً من الحنق والشحناء والبغضاء ضد الريحاني حتى نعيمه... بانهم ثلاثتهم زنادقة ملحدون... لانهم لم يدينوا بدينهم البشري ويخضعوا لشرائعهم البشرية الغاشمة ـ حسبي الآن بهذا المعنى ، ولست بموقفي هذا موقف انتقاد . بل ان موقفي موقف بحث علمي ادبي تاريخي . هذا هو امين الريحاني الكاتب الاجتماعي الحر الصادق المبدا في رسالته البشرية السامية الحرة وثورته التحررية لهذا الشرق الرازح تحت اعباء الاستعمار الجاني الدخيل المغلّل باغلال الجور والانتقام والعبودية ، والدساتير والمعاهدات الاثيمة المقيدة لحريته المقدسة واستقلاله

الوطني التام . فكان الريحاني الكاتب والخطيب العبقري الجريء في جميع مواقفه الداعية الى التحرر والانعتاق من العبودية وبما سطره يراعه السيّال الرهيف واملاه دماغه الشرقي اللبناني من الجراة والحرية والجهودوالتفاني في سبيل حرية بلاده ، وليراها حرة مطلقة يكلّل جبينها غــار الانتصار والافتخار — حيث يخفق فوق جبالها الشامخة وعلى ربوعها المباركة علم الحرية المقدسة والاستقلال التام المنشود . فيبتسم بسمته النقية العزيزة ظافراً غانماً بفوز رسالته الحرة القيّمة مغتبطاً ، مقتطفاً ثمار جهوده وكفاحه اليانعة ، فيرقد عندئذٍ رقدته المباركة بجوار آبائه واجداده الكرام العظام الميامين المجاهدين — ويصحُّ القول المأثور : = هنيئاً لمن له مرقد عنزة في هذا الجبل المبارك = هذه كانت جلُّ أمانيه العذاب ، وصفوة بشارته ونزعة أمنيته بما قــد اطلق صوته الصادق القوي النبرة في ميادين مواقفه الطيبة الصافية الصادقة ومبادئه القويمة ـ لقد كان كاتباً فذّاً اجتماعيّاً واقعيّاً صادقاً يصف العلاج الناجع للأدواء الاجتماعية ، مغامراً في كفاحه المتواصل الامين دون اي ثواب بشري . كأنني به ضم صوته الصادق الحر الى صوت زميــله الاديب الكبير الحر ، والشاعر البليغ الجريء الصادق ولي الدين يكن قوله:

أذمُّ فلا أخشى عقاباً يصيبني   وامدح لا أبغي بذاك ثوابا

ميزة أسلوبه الانشائي

لقد تباركت المدرسة اللبنانية الملهمة التي خصها الباري في ميزات رائعة ، وايحاآت سامية ، وإلهامات منبثقة من هذا الجو اللبناني الصافي الاديم ، والقطر السحري البديع الخلاّب في رقعته التاريخية ، ومهبطه النبوي الموحي العبقرية المتسرقة ، والملهم الخيالي الرائع الجمال الفاتن ببديعه الفني وتصاويره

الجذابة ، وتصاميمه المبدعة كأني بالمبدع الخالق قد خلع عليه هذا الوحي الرائع ، والجمال الفاتن السحري ، موحي النبوغ والذكاء والخيال لابنائه النجباء الاعلام الذين سطعوا في سماء الخلود والعبقرية والفنون وآفاقها كالكواكب الساطعة فأضاؤا دياجير الجهل وسددوا خطوات الحضارة والثقافة وحملوا مشعل التمدن والرقي في مناهجها الراقية الواعية متسنمين سلم الكمال ، فاذا بالعيون ترمقهم باعجاب وتشير اليهم الاصابع انهم ابناء الانبياء واحفاد موطن الحضارات بلد السحر والجمال والخيال موحي الالهام ومشعل الهداية .

هذه المدرسة اللبنانية الرائعة الملهمة القدسيات كم وكم قد تخرّج منها من الابناء النجباء الملهمين والبلغاء الادباء الناضجين ، وأرسلتهم الى ما وراء هاتيك الافاق النائية فكانوا ابناء بررة غُيُر خلص ، ورسلا صادقين امناء ادّوا رسالتها الثقافية العلمية العالية الرائعة الديباجة والنبوغ الفائق . فكانوا عظماء افذاذ في بطون التاريخ وانشودة خالدة في فم الاجيال . كأني بهم بهذا الصدد قد صحّ فيهم قول شاعر النيل :

ما عابهم طالما في الارض قد نثروا   فالشهب منثورة مذ كانت الشهبُ

اجل ايها القراء الاعزاء ـ إن كنت قد دوّنت هذه الديباجة الرائعة قبل البيان والاسترسال توّاً في الايضاح وإلافصاح عن اسلوب الريحاني الانشائي « فعذرا منكم » قد طالما تجاوب صدى اولئك الرسل الامناء الفصحاء داوياً في آذان المجتمع الانساني الاجتماعي إن في العالم الادبي الراقي ، او في العالم السياسي والفني . طالما قد تبؤوا المناصب والمراتب العالية السنية كما يشهد لهم بذلك التاريخ . فكانت مدرستهم الام التي احتضنتهم وارضعتهم وتعهدتهم واخرجتهم جنوداً بواسل ميامين في ميادين الكفاح ، فرفعوا رأسها

عاليا ، وقد حلّوا جيدها العاجي بالدرر الغوالي. بوركت ِ ايتها المدرسة الملهمة ، الموحية النبوغ والذكاء ، والعبقرية والاشعاع والمثل العليا والقيم . ولست اراني بحاجة ماسة الى تعدادهم فرداً فرداً فانهم لأشهر من نار على علم ـ متى احتاج النهار الى دليل ؟

إليك « ريحانيّنا » النابغة في اسلوبه الانشائي نبسطه امامك يا صاح على بساط البحث والتنقيب لتطلع عليه جيداً بعد الامعان والروية فيه والتمحيص الدقيق.عندئذ تحكم بموجب سنة العدالة والانصاف دون اي ميل وانحراف عن الجادة المنطقية الصوابية .

ان الريحاني هذا في اسلوبه الانشائي كما ذكر هو عن نفسه لاحد اصدقائه الادباء ، من حيث انه في مستهل حياته وقبل ان بلغ اشده وتضلع جيداً من لغة الضاد . اضطرته ظروف الحال، فنزح الى الديار الاميركية المتحدة كما سبق التنويه في مستهل دراستنا وبحثنا عن حياته . ورغم اشغاله وانهاكه في التجارة مع احد ذويه في ديار غربته ، ظل يمارس الدرس بجهود لا يعرف الملل الى عزيمته ليتمكن من الكتابة جيدا في اللغة العربيـة . فكان من حين الى آخر ينشر في جريدة « الهدى » الكبيرة الواسعة الشهرة لصاحبها الصحافي الكبير المقتدر المشهور « نعوم المكرزل » رحمات الله عليه وكانوا يصلحون ويهذبون له مقالاته . بعدئذ أحسّ « الريحاني » بضعف في كتاباته وقد أبى على نفسه الطموحة الى المجد والعلى . فعاد الى لبنان ودخل احدى مدارسه المشهورة « قرنة شهوان » فكان يدرّس الانجليزية ويتعلم العربية ويتقنها حتى تضلع منها جيداً معتمداً على نفسه عالماً بمقدرته في ميدانها الفسيح مرسلًا جواده الماهر يخوض وغاها الكفاحي جاداً مجاهداً سباقـاً يكتب ويحرر ويلقي الخطب والمحاضرات في كل ناد ومجتمع الى أن سطع نجمه في

آفاقها البعيدة ، وكان صوته داوياً في سبيل الاصلاح الاجتماعي والحرية المطلقة والاستقلال التام والتحرر من نير الاستعمار الاجنبي الثقيل ، ويرى بلاده يخفق في ربوعها علم الحرية والاستقلال . والازدهار وبسمة الامال المشرقة تسطع من فوق قمه الشماء . كان الريحاني في اسلوبه هذا الانشائي الاجتماعي بعيد المدى قوي التفكير ، موسيقي العبارة ، منسجم ، سلس الالفاظ ، خيالي التصوير ، بليغ العبارة ، فصيح التراكيب ، دقيق المعنى يصور واقع الحال ، قريب الفهم ، سهل المنال اذا قرأته تحسبه شعراً ، ولكنه شعر منثور لذيذ النغم ، عذب الموسيقى كجدول رقراق تسمع الى وقع موسيقاه وهينمات ترنحه وصدى عذوبته فتشمل بهذه الاناشيد الروحانية والآيات العلوية الملهمة ، فتحس بنفسك في عالم سحري خيالي ـ هذا هو الريحاني اللذيذ الناعم الشفاف بانسجامه اللطيف حيث تستنشق من خلاله روحه اللطيفة العذبة الوادعة ، وقلبه الرقيق الحنون ووداعته الساذجة المحبوبة كالطفل . وحديثه السلس المتواضع . كأني بالريحاني العبقري خالد مع الخالدين . طالما قد تشبع باسلوبه هذا وافكاره الطموحة الى الحرية المباركة قد اقتبس كل هذا من الادباء الكبار المؤلفين الانجليز « كشكسبير » وغيره . في اللغة العربية ، كالمعري والجاحظ ، وابن المقفع ، والحريري ، وعن نهج البلاغة للامام علي ، وغيرهم من العلماء الاعلام . فجاء اسلوبه جامعاً للاساليب الراقية الواعية الناضجة المثقفة الضليعة المطلقة القيود . فكان علماً من اعلام النهضة العصرية الحديثة في مصاف زملائه الادباء الكبار الافذاذ الميامين الاصلاحيين في مقدمة الرعيل الاول السباقين في حلبة المجد والاصلاح الادبي الفني الاجتماعي الذين خرجوا من المدرسة اللبنانية المباركة الملهمة التي طالما سار ابناؤها في طليعة المقدمين

(٥)

تحت كل كوكب كما يعترف لهم التاريخ المجيد ، من ادباء اعلام وشعراء ملهمين وصحافيين مشهورين . وبرهانا ساطعا ، ودليلا واعيا ، وحجة دامغة على صدق ما حبر يراعنا من أدلتنا هذه . لا بدّ من ان نقدم لك ايها المطلع الكريم بعض مقتطفـــات من أسلوب « الريحاني » فتنجلي بذلك حقيقة الواقع ، ويرتفع ستار الوهم والتصور الخيالي . حيث تتجلى الروعة وتظهر على بساط البحث العلمي الجدي الناصع . ودونك انموذجاً من نثره الرائع وانشائه الساطع ،

وادي الفريكة

في صباح يوم من الايام التي تقف حائرة بـــين الخريف والشتاء لبَّيت دعوة الوادي . خرجت من بيتي بمعطف واخـذت اقفز عن الربى وأدبّ من تحت الصخور حتى وصلت الى قلب الغاب . نزلت اتفقد الوادي بعد أن اغتسل بسحابة الخريف الاولى . هبطت عـلى عادتي لا ترويحاً للنفس بـل ابتغاء الالهام والفائدة . أجل ، اقصد الوادي كما يقصده الفلاح ولكن فأسي ومنجلي يختلفان شيئاً عن فأسه ومنجله. واعمالنا ونحن عائدان تختلف كثيراً بعضها عن بعض . على أنّ حطب الغاب يفيد في هذه الايام اكثر من حطب الخيال والفلاح هو الفيلسوف الحقيقي ... قد انحدرت الى الوادي ووقفت على صخر يشرف على النهر وتأملت فعل العواصف الليلة البارحة . فشعرت ان روح الوادي قد اتحدت فيّ وروحي قـد اتحدت بالوادي . فأنا اذن والوادي سواء : في نفسي ما فيهـا من الظلال والخيالات والكهوف . في نفسي ما فيها من الصخور الشامخة والمحدرات الهائلة والسواقي الفائضة والانهر الجارية . في نفسي ما فيها من العصافير والجنادب والنسور .

انا الشرق

ودونك مقطعاً من هـــذا المقال الرائع البديع الخيال والجميل المنطق النابض بالحرية المطلقة التي طالما الريحاني دافع عنها وأحبها ونادى بهـا في كل ناد ومجتمع في سبيل الاخاء والتضامن. من خطبة ألقاها في مصر سنة ١٩٢٢:

أنا الشرق . عندي فلسفات ، وعندي أديان ، فمن يبيعني بها طيارات ؟ أتحسبها سفاهة مني أو تظنها تجديفاً ؟ قد يكون ذلـك ،،، أنا نفسي أجهـل اليوم صوت نفسي ، صوت المجالس ، صوت المنـــابر ، وصوت الصحافة . أجل انّ لي أيضاً صحافة فضاحة يا فتى الغرب . ولي منابر قد لا ترضى بهـا آلهة اجدادي ! ولكنها منابر جديدة ، حريتها فتاة لا تعرف التمويه . فلا تسمعك ما يسرّ ان لم تجئها بما تريد. وهناك سر أهمسه في اذنك يا فتى الغرب. ليست الأديان والفلسفات ما تظنها . وليست ما تظن اني اظنها. فلا للحراثة هي ، ولا للتجارة ولا للسياسة ، ولا للتقشف انما الاديان والفلسفات لمصافي الماء . هي مصافي الحياة ، تصفّيها في الاقل من بعض الحشرات والجراثيم .

اخواني ابناء هذه البلاد

اليك مقطعاً من كتاب ـ النكبات ـ حيث تتجلّى فيـه روحه المثالية المتواضعة الوثابة الى الحق والحرية والاستقلال التام والاتحاد في سبيل امجاد الآباء والاجداد كما كانوا في تضامنهم واتحادهم وحبهم وتآلفهم للذود عـــن حياض الوطن قال :

... كثيراً ما نقرا ونسمع انّ تاريخنا مجيد ، وكثيراً ما نتغنّى بمجد الجدود وبمفاخرهم . فتعالوا نعيد النظر في اهم مـا في التاريخ ، تعالوا نزور

الماضي الذي الهانا عن كل مكرمة ، تعالوا نزور الماضي فنقصر إذ ذاك عن ذكر الاجداد . ومن هم الاجداد . اجدادي واجدادكم ؟ القوي منهم كان ظالماً ، والضعيف كان مستعبداً . اقرأوا التاريخ منزهين عن الاغراض مجرّدين عن الاهواء . اقرأوا التاريخ لتدركوا اللبّ فيه ، فتنسوا اذ ذاك قريضه وقوافيه . اقرأوا التاريخ متفهمين روحه وروح ابطاله ، فتودّون اذ ذاك ان تنسوا الماضي. انسوا الماضي انسوه غير آسفين . وتعالوا نتفاهم، فنتآلف فنتضامن ، فنتحد في سبيل الوطن بل في سبيل الحياة . تعالوا نكتب صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد .

أنا الزمان

انك يا قارئي العزيز لتلمس بهذا المقطع الفلسفي المنطقي الروعة والخيال والاباء والحرية دون ما تهيب ولا وجل في سبيل الاندفاع للوئام والعدل والعلم وروح المدنية السامية حيث يهيب بأولئك المسؤولين الطغاة لينشروا العدل والحرية المدنية ولواء الوطنية الصادقة والترفق بالانسان والمعاملة بالمساواة ، فاسمعه منددا ثائراً ناقماً غاضباً على الظالم الغاشم السالب حق الضعيف فيقول :

انا الزمان اقول للشرق وملوكه : اشعلوا مصابيح الثقافة والوئام في الثغور ودونها ، بينكم وبين الامم الشرقية . أنا الزمان اقول : المستقبل للعلم الذي فيه خير الناس أجمعين ، وحرية الامم جمعاء . لا للمال المستعبد للامم والشعوب . انا الزمان اقول : المستقبل لسياسة العمران العالمي ، لا لسياسة الاستعمار الدولي . انا الزمان اقول : المستقبل للمدنية التي تعزز العقل والروح كما تعزز المادة، لا للمدنية التي تعززها الجيوش والاساطيل..

من كلمات الريحاني

اسمع يا قارئي العزيز ، وأصخ سمعاً رهيفاً وأدر قلباً واعياً نابضاً بالشعور والانتباه الى هذه الحكمة الرائعة ، والاقوال الواعية ، والامثال الحكمية التي دبجتها يراعة « الامين » حكمة ناطقة ، وعظة واعية ، ونصائح نادرة ، وشرائع سامية ناصعة ، ومباديء صحيحة ، ودستوراً صحيحاً للاجيال الآتية تسير على نورها الساطع من على منارة الحق المقدس والحرية المباركة التي عاش لها « أميننا » المحبوب الرجل المتواضع المثالي ، والرسول الصادق برسالته الحقيقية . ومات فداءها راضياً قنوعاً ، محباً ، صادقاً ، شهيداً بعد أن ادّى واجبه الانساني في خدمة الحق والحرية والعلم والعقيدة الناصعة : قال : لو ساد العقل في الناس دائماً لما كان الرسل والانبياء . ولو سادت الحكمة لما كان الفلاسفة والحكماء. ولو سادت الشجاعة والحكمة والعقل معاً لما كان الظلم والظالمون . أودّ ان أعيش دون ان ابغض أحداً. واحب دون أن أغار من احد . وارتفع دون ان اترفع على أحد . واتقدم دون ان ادوس من هم دوني او احد من هم فوقي . الندامة حباً بالغفران ، كالاحسان حباً بالشكران ، احب ان تشع حياتي ولا احبها ان تفرقع . احب ان تكون كأحد الكواكب السماوية لا كسهم من الاسهم النارية . انّ النور المنبعث من عين المريض الذابلة لاجمل من نور الشموع في الهيكل . احب من صديقي الاباء اكثر من المرؤة. احب منه الانفة وان كان فيها عنيفاً . ولا احبب الصغارة وان كان فيها لطيفاً . الناس اشباح تحركها الاغراض والاهواء ، وتتقاذفها في بحار الحب والبغض الرياح والانواء . الحكيم لا يخشى الموت لعلمه انّ الموت بعيد عن الانسان ما زال حياً . ومتى مات الانسان يصبح بعيداً عن الموت . ما افقر

الانسان اذا كان لا يستطيع ان يرفع نفسه فوق نفسه . عليَّ ان اعيش صادقاً سالماً مستقيماً . وللناس ان يعيشوا كما يطيب لهم . أمنيتي ، لا المجد ولا الشهرة ، ولا الجاه ولا الثروة ولا السيادة ، ولا العظمة . انما أمنيّتي الجوهرية ، هي ان اكون بسيطاً في اعمالي ، صادقاً في اقوالي . مستقيماً في مبادئي وآرائي ، فطرياً في تصرّفي وسلوكي حراً في ما أحب وما اكره ، وأود ان اكون دائماً نظيف الجسم نزيه العقل والقلب بعيداً عن التصلف والزخرف والعجب والمصانعة ، بعيداً عن الكذب والجريرة والمداهنة والرياء ... ـ انّ الجهل والخوف توأمان امهما العبودية وابوهما الظلم . اني ادعو الناس لثورة فكرية تذهب بما في الاخلاق والعادات ، والتقاليد ، والعقائد من فساد وسخافة وضلال . الثورة الادبية قبل الثورة السياسية . والثورة الروحية قبل الثورة الاجتماعية . انّ الله لا يغير بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فالمرء الذي يثور اولاً على نفسه فيصلحها ، انما هو المصلح الحقيقي ان ديني وطني ، وبطريركي مبدأي ، وكنيستي ادبي ، وطائفتي أمتي . والاديب الحر الصميم الصادق من قال هذا القول وسلك هذا المسلك . والصحافي الحر الصادق الوطنية من بشر بالطائفة الجديدة ، طائفة الوطن والجنس ، ورفعها على كل الطوائف الدينية والاحزاب السياسية في البلاد . يجب ان نجرد أنفسنا كوطنيين من كل تعصب ديني ، وكل تحيز طائفي . وان ننهض على النزعات الطائفية والنعرات الدينية فنقتلها وننزعها منا لتجدينا كبير نفع .

مناجاة أرز لبنان

لنسمع « الامين » بمناجاته ارز لبنان ، مناجاة سامية خشوعية بقلب

عاطفي محب ، وبتواضع كلي كطفل وديع نقي القلب ، ساذج السريرة ، طاهر الضمير ، يناجيه بتهيب وخشوع كمن يناجي خالقه خاشعاً ، ضارعاً ورعاً يجلله الاحترام مخاطباً اياه باجلال واكرام قائلاً :

رفعت حجراً من حجارة الطريق الى فمي ، فقبلته ورعاً حامياً ، آملاً قبل ان دخلت الظلال القدسية ، واستغفر الارز لامتهاني حرمة عزلته ، هذه العزلة الفريدة في اعالي الجبال فوق وكر النسور وراء حجب الآفاق . استغفرت الارز لانني جئت اشق ستار كعبته ، جئت استكشف مكنون سره . إيه ربّة الاشجار ، وسيّدة الجبل الجبّار ، انت الرافعة اعلامك الخضراء ، بين هذه الصخور الدكناء بنت الجديدين ، واخت القمرين . حدثيني ، حدثيني ، وعلميني ، وارفعي بي الى علياء إيمانك . فقد جئت مستعلماً مسترفعاً مستمدّاً من ينبوعك العالي القوة والحكمة . حدثيني عن رياح الشمال . هي تجيئني مولولة نائحة ، فأوقفها لتستريح ، فتستميل انفاساً عطرية حدثيني عن الغيث اذا اهمى . هو يرقص على الصخور امامي ، فتقهقه هازئة ، ويضرب على اوتار قيثارتي فتسمعه اغاني البلابل والامواج ... ويختم مناجاته الخشوعية النقية التقوية الصاعدة من قلبه النابض بالمحبة الصافية والحكمة النزيهة والعاطفة القوية مستفيضاً بالتضرع والابتهال والاجلال متدفقاً بصلاته هذه غائصاً في تأملاته الطاهرة سابحاً مرتفعاً بروحهِ النقيّة الى عرش الالوهية القدوسة :

أرز جبالي ، ارز اجدادي ، لياليك ليالي ، وانّ نجومك نجومي . . .

صلاته

يجدر بنا ان نختم درسنا القيم بعد ان جال اليراع في ميدان البحث عن

حياة « الامين » المحبوب الفيلسوف العبقري الخالد ، جولته قدر المستطاع بهـذا البحر الشامع الخضم المترامي الآفاق منتخبين جزءا نفيساً من صـلاته هذه الخشوعية التي كان يناجي بها ربه وخالقه في وحدته وعزلتـه وانفراده منخطفاً بروحه السامية وقلبه الحساس النابض بالمحبـــة والعواطف الرقيقة والتسامح والتواضع العشّاري العميق ، القلب النقي الناصع كالثلج ، كأني به يقول مـع النبي الملك : قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله ، اغسلني كثيراً من آثامي ومن خطاياي طهرني ، فابيض اكثر من الثلج » .

وردًّا على مزاعم وإفك وشعوذات وترهات من رشقوه ورموه بنبال حقدهم وحنقهم وغضبهم حانقين عليه كزميله « جبران » كما سبق القول عنهما ، بالزندقة والكفر والالحاد . وان رسالتهم التي ارسلهم بها الناصري واسندها اليهم طالما قد عرفوا وتحقّقوا بها في المجتمع الانساني . كيف يزرعون الشقاق ويفرقون الصفوف في سبيل مآربهم وغاياتهم والاندفاع وراء المناصب والالقاب والمجد العالمي ـ هذا « امينا » الصادق الامين الحر الناطق بصدق رسالته دأبه المحبة الاخوية الصادقة والتسامح والتواضع ، يضرع اليـه تعالى بقلب وديع متواضع مناجياً اياه بصلاته الخشوعية السامية خاشعاً امام خالقهِ في هيكل الروح القدسيّ قائلًا :

يا ذا الجـلال الازلي ، أَلحفني بشيء من جـلالك « يا ذا النور الدائم ، أمددني بقبس من نورك . يا ذا القوة غير المتناهية ابعث منها في قواي . انما انا مبدأ الحياة الازلية ، وعين الحب والقوة . واني حي فيك ، عليم بنجاويك. أنتَ الحياة بأجمعها ، أولاً وآخراً واني لأحيا بك . انّما أنا مصدر الادراك البشري . وسأزيدك إدراكاً بانك جزء مني... ساعدني اللّهم لأجمع قواي الروحية والعقلية والجسدية في سبيل الحق والحب والحكمة...

هذا « فيلسوف الفريكة » قد بسطناه امامك ايها الطالب العزيز على بساط البحث التاريخي الأدبي المنهاجي كزميله – جبران – في هذه العجالة الدراسية الضيّقة التي تكبل على الكاتب يديه وتغللهما ضمن نطاقها الحصري، حيث تسد عليه في هذا الباب الضيق من أن يخوض في هذا الميدان الفسيح مطلقاً لجواده العنان سابحاً خائضاً عجاجه ثمـــلا بصهبائه اللذيذه الكوثرية الادبية ، خارجاً عائداً من نقعه الحماسي الريحاني العطر العبق ، فيعود حاملًا غار الانتصار على جبينه الوضاح ،وعلى ثغره ابتسامة الظفر . ولكن أدع البحث الجليل وغوصي العلمي في هـذا اليم المترامي الاطراف منتزعاً درره الغوالي محلياً بها جيد المطالعين الاحباء في غير سانحة فسيحة المجال صافيـة السماء ، رائقة الاجواء ، هادئة الارجاء ، مطلقاً عنان اليراع الحر الجريء في مثـل هذا الكفاح ما خاض بهِ قبلي زملائي المجلون السباقون الى غار النصر ، فاذا هم شامة في جبين الدهر – ولنعتبر بما تركه لنا فيلسوفنا الكبير الخالد امين الريحاني من الآثار الرائعـــة ، والدروس القيمة ، والمبـاديء المستقيمة ، والتعاليم السامية ، والقيم المثلى، والأخوّة الصادقة جميعها تراث اثيل ،ورمز قيم صافي الذهن، ودستور جديد نيّر يجب ان ننهج نهجه سائرين على مبادئه الصحيحة متسلقين الذروة النبيلة التي اقتفى أثرهـا وسدّد في حلقاتها خطـاه الثابتة الامينة الى محجة الصواب – هذه هي اعلامنا الخافقة في سماء المجد رمز الحرية والامانة والوطنية للنزعة الابيّة، والطموح في سبيل الاستقلال التام الصادق الحر . وانهم لسرج ومنائر شعشاعة من عـلى قمم المجـد والحرية في دياجي الاستعمار الذميم انتصاراً للحق والمبدأ والعدالة . هكذا يجب ان نكون ونظل متخلقين بأخلاقهم النبيلة السامية ، وننهج نهجهم الامين السديد مقتفين آثارهم الخالدة الغالية مستنيرين بحكمتهم ، متأدبين بأدبهم العـالي ، متحررّين بحريتهم . . .

ولي الدين يكن

(١٨٧٣ - ١٩٢١ م)



حياته

ولد ولي الدين يكن في الاستانة عـــام **١٨٧٣** وهو ابن حسن سري الدين يكن يتصل نسبه النبيل بالسلالة المالكة في مصر ، ابن اخت محمد علي باشا الكبير مؤسس الاسرة المالكة الذي تبوأ عرش الفراعنة . وجـاء عن المؤرخـــين والكتبة كما يقول الشيخ انطون الجميل « رحمه الله » الكاتب القدير ما معناه : انّ كلمة « يكن » لقب اسرة آل يكن ، معناه في اللغة التركية « ابن اخت » لان مؤسس الاسرة المالكة في مصر كان ابن اخته جدّ ولي الدين يكن . كما يطلق لقب « الداماد » في تركيا على اصهار سلطانها - هكذا يتحدر أصل اديبنا الكبير الذين نحن في صدد البيان عن حياته من الاسرة النبيلة المشار اليها ، اباً واماً . أما من جهة امه فكانت اميرة شركسية ايضاً حيث نزح والدها عن موطنه الى تركيا ، وتربّت في قصر احد ابناء سلاطين آل عثمان ، اي السلطان عبد المجيد .

وكأني بولي الدين يكن الكريم المحتد ، والنبيل الارومة يقول مع ابن الرومي :

لا تظني حسباً يخفضني أنا من يرضيك عند الحسب
انّ قومي ملكوا الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب

اما ولي الدين يكن فلم يكن يفاخر بنسبه ولا اعتز بحسبه بل كان كريم الخلق أبي النفس ، عالي الهمة يعرف كيف يحترم نفسه ليحترمه الناس . بهذه الدعة السنية كان يدعو الى اجلاله واحترامه بما ينمّ عنه من شرف المحتد — ولقد جاء به ابوه الى مصر وهو في الثالثة من عمره . وما لبث ان توفي والده وهو في السادسة من العمر . ولما كان نسبه نبيلاً كما سبق الكلام ، أدخل « مدرسة الانجال » النبيلة المشهورة المختصة باولاد الأشراف التي اسسها محمد توفيق باشا خديو مصر . فتعلم العربية والتركية وكان بين اقرانه الطلاب من النجباء الاذكياء لفت اليه الانظار . وكان من رفاقه فيها الخديوي عباس باشا . ثم قد تعلم ايضاً اللغة الفرنسية واتقنها جيداً ، والمّ بالانجليزية .

وبعد تضلعه بالعربية واتقانه اياها جيداً ، اقبل على الكتابة في حقلها الشاسع الخصب بقلمه السيال وبراعته الفياضة نثراً وشعراً — فكان ينشر في الصحف المقالات الضافية في السياسة والادب والاجتماع. فلمع نجمه وطارت شهرته الادبية الواسعة عند ائمة اللغة ، فاشرأبت اليه الاعناق وطمحت اليه الانظار ، فاحتل المكانة السامية لديهم . وكان بعد هذه الشهرة البعيدة المدى التي بلغها بفنه وادبه وخبرته ، وتعشقه للأدب واصوله ، نال المناصب التي تليق بمقامه في السلك الحكومي . ولكنه ما لبث ان غادره ناقماً غاضباً لما راى فيه من الشذوذ . ثم دار به الحنين الى مسقط راسه الاستانة .

فمكث مدة عند احد اقاربه حوالي سنة ، وغادر بعدها تلك الديار الى مصر فأنشأ جريدته « الاستقامة » المشهورة في سنة ١٨٩٧ . وشرع يلوح باللآئمة ويثور على الظلم والاستبداد والمكايد والطغيان مما اطلع عليه في بلاده من جور السلطان عبدالحميد . وكان يحبر المقالات الصائبة الضافية بذلك اليراع العسال اللآذع الحر الناقم ضد الحق والسياسة العثمانية الجائرة. فأخذت جريدته « الاستقامة » تتلقفها الايدي بلهفة الجائع ، وتقبل عليها اقبال الظامىء الى الماء العذب الزلال . اخيراً منعت الحكومة العثمانية جريدته من دخولها الى الاراضي العثمانية للأسباب المذكورة . فاضطر الى توقيفها عن الصدور ، وقد ودّعها بقصيدة من عيون الشعر بما قد عرف عنه من إباء وشمم وعزة نفس ، نجتزيء منها بعض ابيات نشرتها له جريدة « المشير » حيث يقول :

دعا باسمه داعي النوى فأجابا ... وودّع أحبـــابا له وصحابا

ومنها يتابع قوله :

الا انـــه دهر رمى فأصابه ... وقدماً رمى مَنْ قبله فأصابا
أَراني وحيداً والحوادث جمة ... ألاقي طعـانا جيشهـا وضرابا
أثبت اقدامي وابرز صفحتي ... لديها ولا أرضى هناك حجابا
ولي أمل أودى الزمان بنجحه ... وخيّبه سوء الظنون فخابا
أحبُّ الليالي لا للهو وانمـــا ... لأقرأ سفراً أو أخط كتابا
تسيـّر اقلامي ركابا خواطري ... فتدرك من ظعن الخيال ركابا
نواهز من حدّ البلاغة رتبـة ... اذا نالها الادراك كان شهابا
صعاب على غيري اذا هو رامها ... وان رمتها ليست عليّ صعابا
فمن مبلغ عني الغضاب الالى جنوا ... باني امرؤ ما أن اخاف غضابا
أذمُّ فلا اخشى عقـابا يصيبني ... وامدح لا ارجو بذاك ثوابا

على مَ أحابي معشراً انا خيرهم ... ومثلي اذا حابى الرجال يُحابى
ولما غدا قول الصواب مذمَّماً ... عزمتُ على الا اقول صوابا
فجافيتُ اقلامي وعفت «استقامتي» ... ورحتُ ارجّي للسلامة بابا
فما العز الا ان يدورَ بنا المدى ... فنمسي حضوراً مرة وغيابا
لِيَ اللهُ امَّا من رضيت فقد مضى ... برغمي واماَّ من أبيت فآبا

وشرع ينشر مقالاته الاصلاحية الثائرة على الظلم والظالم في الصحف المصرية في جريدة « المقطم » والمشير » وغيرهما. ثم ودَّ العودة الى الاستانة. وكان قد دعاه السلطان عبد الحميد . ليسند اليه منصباً رفيعاً تخلصا واتقاء من لسانه اللآذع ونقده الحاد . فعينه عضوا في مجلس المعارف الاعلى ، وما لبث ان نقل الى « الجمعية الرسومية الجمركية » - وفي ابّان وظيفته هذه كانت العيون تترصده وقد نصبت حوله الشباك لاصطياده والجواسيس تترقبه من قبل الدولة لنزعته ونزاهته واستقامته وانتقاداته السابقة لسياسة الدولة وسوء ادارتها ودسائسها ، ووشي به لدى السلطان بانه يتآمر مع الاحرار من المصريين لقلب العرش العثماني .

فألقي القبض عليه ونُفيَ الى « سيواس » فظل فيها سبع سنوات سنة ١٩٠٢ . وكان في منفاه عاكفاً على المطالعة والكتابة مما كان يخفف عنه وطأة المنفى . واليك ما كتب في ذلك المنفى الاليم من زفراته الحرَّى من قصيدة قال :

فؤاد دأبه الذكرُ ... وعين ملؤها عبرُ
ونفس في شبيبتها ... وجسم مسه الكبر
وآمال مضيعة ... ووقت كله هدر
وعيش عذبه مضض ... وعمر صفوه كدر

أَمـا يا ليـل من صبح — لمن سهروا فينتظـر
جفون النـاس ساهرة — وجفني ضافــه السهر
وحيدا فيك ذا حـذر — يـكاد يخونني الحذر
سأقضي العمـر في أسر — ويسعدُ بعد من أسروا
أرى « سيواس» تغمدني — كأني صـارم ذكـرُ
صدأتُ بهـا وأحسبني — سأصدأ ما جرى العمر
أَيخـذلني وإخـواني — وينصر خصمنـا القـدر
فوا لهفي علـى سرب — تولى رعيــه النمـر
غدا في ارض مسغبةٍ — جفاهـا النبت والشجر
قضى راعيه مـن زمن — وضلّـت بعـده العفر

وهكذا يواصل شهامته واباءه وأنفته في هذه القصيدة العصماء المليئة بالعواصف الثائرة الجياشة الى ظلم عبد الحميد الطاغي ورجاله متوعدا بأن الظلم لا بدّ ان يحول ، ولكل دولة تدول ، وينقلب الظالمون شر منقلب . متابعاً حماسته وشجاعته بأنفة وعزة قائلا :

يقول احبّتي صــبراً — وهل في النار يصطبر
ُعداة الحق قد ربحوا — واهل الحق قد خسروا
ونحــن أماننا وطن — نراه اليـوم يحتضر
نصحناهم فما انتصحوا — زجرناهم فما ازدجروا
لقد صــلدت قلوبهم — كأنّ قلوبهم حجر
اذا ائتمروا على كيد — فانّا سوف نأتمــر
فمن نخشى وفوق العرش — مهما يغــترر بشر
وفي الايام متسع — وفي الاقـدار مدّخر

وهـذا التـاج منعفر غـداً والقصر مندثر
رويداً انهـا دول تدول وبعدها أخر
يظلُّ الحق منهزماً زمانـاً ثم ينتصر
سيوف الله إن سُلت فلا تبقي ولا تذر

وبعد ان بقي سبع سنوات في منفاه صابراً عـلى كيد الدهر وظالميه الطغاة محتملاً مرّ المنفى ، وشدة عذابه ، والآمه المبرحة بما عُرف فيـه من عزم قوي ، وحزم جبار بوجه المصاعب الى ان عفي عنـه . وكان ان تغير الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ فعاد الى الاستانة وما لبث بها مدة قصيرة حتى انكفأ راجعاً الى مصر ، فكان له احتفاء عظيم يليق بشخصيته الفذة الانوفة ، ومحتده الكريم ، وعزة نفسه ومرؤته بين اقرانه الادباء وزملائه الاحرار. فأخذ بعدئذ ينشر كعادته المقالات الضافيـة الجريئة الحرة والقصائد العصماء الوطنية في الجرائد . وعينه السلطان حسين كامل في منصب وزاري ومـا لبث بعده ان دعاه اليه وعينه سكرتيراً في ديوانه العالي . وكان اسعد عهد مرّ عليه في حياته المليئة بالشدائد والآلام والمصائب والاضطهاد والكفاح في سبيل المجد والحق والاصلاح والمجتمع كما ذكر هو عن نفسه — فحظي حظوة عظمى لدى ولي مصر . وقد قال في هـذا الصدد ما معنـاه لاحد اصدقائه المخلصين : لقد دخلت باباً جديداً انست فيه ارتياحاً ، واراد الله ان اخدم سلطاناً اذا مدحته مدحته صادقاً . فالحمد لله والشكر لله . رايت ما ملأ نفسي سروراً . ولقد قال لي : اني أحبُّ البساطة واكره العظمة . فسِرْ في طريقي وليكن تعلقك بشرف النفس ومكارم الاخلاق اشدّ من تعلقك بكل شيء ولقد نجلس معه عـلى المائدة فنراه اذا حدّث حدّث بالكلام الجزل . واذا حُدّث سمع باللب لا بالاذن ، متواضعاً بريئاً يزيّنه الوقار

والمهابة . فنخرج وكلنا مغتبطون بخدمته ، مجمعون على اعظامه والاعجاب به – يا بسمة بسمها الزمان بعد طول عبسه . على ان هذه البسمة التي بسمها الزمان لم تطل لاديبنا الكبير وشاعرنا القدير الابي ، النبيل الاخلاق ، والمجاهد الحر في ميدان الكفاح لاجل عزة وطنه وحرية ابنائه واستقلاله . فساءت صحته واخذ يمشي الداء الوبيل في ذلك الجسد الصامد لدى الاحوال والشدائد والمصائب الذي طالما قاسى الاضطهاد الجائر محتملاً متحملاً نبال الاعداء الحادة يتلقاها صامداً بصدر جبار رحب في سبيل الحرية المباركة للمجد والكرامة الوطنية المقدسة. فاشتدّ عليه الداء واصيب بالربو من سنة ١٩١٨ الى ان خبا ذلك السراج الوهاج الذي طالما استقى من زيته الغزير الادباء والشعراء والاحرار في سبيل التمشي على نوره الساطع للوصول الى قمة المجد والحرية والكرامة والسؤدد والانعتاق من ربقة الجور والطغيان والفساد . وتوفي في ٦ آذار في مدينة حلوان سنة ١٩٢١ . هكذا انطفأ ذلك المشعل الوضيء البعيد المدى من على منارة الادب والهدى والعزة والحنان والجهاد على شاطيء الانسانية الابية النبيلة . فبكاه الادب الرفيع ، ورثاه اخوانه الاعزاء بالدموع الغزيرة . وتفطرت عليه القلوب اسى والماً مريراً كئيباً، وناحت عليه طيور الدوح شجناً حزيناً، وتلفعت بالحداد على ابنها البار الحر وشاعرها الكبير الحنون الحساس ، وبلبلها الغريد ، واديبها الفذ الابي ، وجفّ المداد ، وحبرت الاقلام للرثاء عليه بالدماء من مهج القلوب المنفطرة اسى وكآبة وتحسراً وندماً... واوسعته طي ضلوعها وجعلت لحده في طيها.

ووجد قرب سريره هذان البيتان هما بقية ذلك الهيكل النحيل الذي هدّمه الاسى والجهاد وطواه الداء الوبيل العاني هما :

يا جسداً قد ذاب حتى امّحى   الاّ قليلاً عالقاً بالشقاء

اعانــك الله بصبر عــلى   ما ستعاني من قليل البقاء

شخصيته

كان ولي الدين ذا شخصية نبيلة المحتد، واخلاق رفيعة تنم عن نسب اثيل، نزيها ابياً مغزما بالحرية جريئا في مواقفه والدفاع عنهـا يثور بوجه الظلم والاستبداد غير هياب ولا وجل من اي شخص كان مهما علا منصبه . فلا يهاب الموت في سبيل الدفاع عن الحق ، ولا يخشى مهاجمة اولئك الطغاة المستبدين المخادعين الاغرار فكان يقف بوجههم مناضلا مدافعا عن الضعيف وحقوقه المهضومة في سبيل اصلاح المجتمع واستتباب نصاب العدل . كان لطيف المعشر ، دمث الاخلاق ، كريم النفس ، رهيف الاحساس ، عصبي المزاج ، صادق اللهجة ، يقظ الخاطر ، فكه الحديث ، رحب الصدر ،سخي اليد ، عصامياً زاهداً في الحياة ، ولم يكن كغيره يتهافت على المناصب مما يدلنا من الاطلاع على تاريخ حياته المجيد الناصع الصفحـات حيث يجعلنا ان نكبر اعجابا بشخصيته الجليلة ، وننحني إجلالاً الى مـــا كان يتحلى به من الصفات السامية ، والمزايا الخلقية العالية ، والدعة ، وما نعرفه ونستخلصه من الحقائق الناصعة عن تزهده في المناصب ، ولو طلبها كغيره لاتته طائعـة صاغرة بقوله :

تزهدتُ في وصل المعالي جميعها   ومن يطّلبها كاطلابي يزهد
واني في بيت صغير مهــــدم   كأني في قصر كبير مشيــد
تركت الغنى لا عاجزاً عن طلابه   وانزلت نفسي عن منازل محتدي
وهذي بحمد الله مني براءة   فيا افق سجلها ويا انجم اشهدي

الله من هذه النفس الكبيرة العيوف في محتدها ونبلها عشقت العــلى

والنزاهة والانفة . وقد كرهت الظلم والظالمين والمتكبرين والغاشمين في سبيل الحرية المباركة ، ولاجل المظلومين الضعفاء ولم يطاطيء قط رأسه ، ولم يحن ظهره امام كابوس الظلم والاستبداد ولم يحد أبدا قيد شعرة عن مبدأه الجريء الحر ، وتلك الانفة العالية ، والاباء المجسم في ذلك الروح الابي الانوف — وكان يكره التعصب الذميم كرهـــاً شديداً وينفر من التقاليد البالية ، والمباديء الرجعية . بل كان صادق النية مستقيمها ، ذا ارادة حديدية في سبيل الاستقامة والعدالة ، متحليا بالشمائـــل الطيبة ، والخصال الغرّ الحسان . ولقد أحسن في وصف هذه الخلال الحسنة ، والمزايا العالية بما قال عنه الشيخ انطون الجميل : عرفته في ديوان السلطنة ، وعرفته على مكتب الصحافة ، وعرفته في مجالس الانس ، وعرفته قابعا في داره بين مخالب السقم وبراثن اليأس ، فلم ارَ منه في جميع المنازل التي انزلته الحياة الا ّ ليّن العريكة ، ودماثة الخلق ، والحرية مع الادب ، والدعة مع الاباء.

شعره وادبه

كان ولي الدين شاعراً طموحاً الى العلى مطبوعاً ملهماً ملء روحه الشاعرية . وقال الشعر وهو حدث يافع قد استهواه في صغره فنظمه . والدليل على ذلك ما ننقله الى الرواة عما جاء عن ابيه هذه العبارة الدامغة عندما اطلع على ابنه وعلم انه ينظم الشعر ، وقد أُولع به ، فوبخه عليه قائلا له : « يا بنيَّ لا تكن شاعرا لأن الشعراء من ابناء النار » — كان شعره سلس الالفاظ رقيق المعاني ، سهل القوافي تنقاد اليه انقياد الانعام لصاحبها ، عذب الاسلوب ، يملك القلوب بلطف معانيه وهو في طليعة الشعراء في هذا الشرق الذي هو مهبط الوحي والالهام نزوعا الى الحرية المفداة ، متعطشا

الى الاستقلال التام طالما جرد قلمه في سبيل استقراره وقد قاسى الظلم والاضطهاد ، والجور والمحن للانعتاق من قيوده وتحطيم اغلاله . ورفع علم الحرية عاليا خفاقاً مكرساً يراعه في سبيل اوجه ، صافعاً الظلم والظالمين الغاشمين في حرية قلمه السيال الجريء ساخطا ثائرا عليهم قائلا :

«يريدون ان اكتب ما يريدون واريد ان اكتب ما اريد» .

كان شعره الحر ملء بردتيه ، وروحه السلس العذب الانقياد ، وملء فؤاده الحساس الخفاق النابض بالذوق والنزاهة ، يستبكيك حيث يكون البكاء والالم . ويطربك حيث يكون هناك الطرب والسرور والصفاء مالئا قلبك مع قلبه سرورا وصفاء . وانك لتلمس معه الدموع حيث يبكي لمس اليد وتحس بنار الالم والاسى تتأجج في اشعاره والفاظه تتبين من خلالها روحه المتألمة الثائرة على الطغيان والطغاة . ولان كل ما جرى بـــه يراعه الرهيف من شعر ونثر الا بما خفق به قلبه النابض بالشمم . وتحرك له لبـّه الوقـّاد . وكما نوّهنا ذلك عن حرية فكره وقوله وجرأته . ولقد اضرّت حريته هذه بنفسه كما نعرف عنه جيدا . ولو شاء ان يضحي كغيره ويتزلف بحرية فكره ومبدأه لكان احتل شأوا كبيرا ومقاما ساميا بين ابناء بجدته سواء في تركيا ام في مصر . ولكنه قد آثر ان يعيش حراً ابياً ، عيوفا من ان يسخر نفسه وينزل بمحتده وشرفه في مهاوي الجشع والطمع والاذلال والانقياد للطامعين الظالمين . بل فضّل ان يحيا حراً طليقاً في سماء الحرية فيقول :

واعتلي كرسيّ مستكبراً   كالملك فوق العرش اذ يعتلي

فكان جزاء حريته هذه المفداة النفي والتشريد والاضطهاد والعذاب والآلام التي كابدها بصبر عجيب ، وقلب كبير ، وروح سامية ، واباء

وعزة وشمم بما فطر عليه . ومات كبيرا عظيما ، ومجاهداً اميناً ، وصديقاً مخلصاً باراً وفياً لدى كل صديق مخلص وفيّ تعشق الحرية المقدسة متخطياً آثارها مقيماً لها تمثالاً طيّ ضلوعه كما تعشقها شاعرنا الكبير واديبنا القدير الفذ ومات فداها موفياً قسطه التام في سبيل تعزيزها ورفع قدرها .

ومن جهة نثره ايضاً فانه في طليعة الادباء الكبار وليس في الشعر فقط، بل انه قد مال اخيراً عن الشعر الى النثر وعالجه وخاض ميدانه فكان الفارس المغوار وحلق في ادبه النثري تحليقاً شاهقاً كالنسر وبرع فيه كما يشهد له اعظم رجال الادب المشهورون . مما يدلنا على ذلك ما تركه لنا من آثار ادبه النفيس في مؤلفاته القيمة « الصحائف السود » والتجـــاريب « والمعلوم والمجهول » وغيرها كما سيأتي ذلك في حينه. ودونك النزر اليسير من نثره العالي المتين المعبر عن حرية فكره وآرائه ، والآمه مما قاسى في حياته المليئة بالاضطهاد والكفاح في سبيل الاستقلال والانصاف والدفـاع عن الوطن ومجده وكيانه وراحته واخوانه ، فأدّى كل ذلك الى المرض القاسي العضال فبرى جسده النحيل الهزيل ، فأخذ بالانحطــاط والزوال رويداً رويداً الى عالم الخلود ليلقى ثواب كفاحه وجهاده :

« أنا في يأس شديد من زوال هـذا المرض الربو الذي عجز الطب عن دفعه . اذا دجا الليل تكاثرت مخاوفي فلا يغمض جفناي فرقاً لاني لا أغفى اغفاءة الا وانتبه صارخاً مذعوراً ، اذ تنقطع انفاسي ويشتد اضطراب قلبي وتبرد يداي ورجلاي ، فاختلج مكاني واتلوّى تـلوى الافعى ألقيت في النار . أريد تنفساً استعيد به ما يوشك ان يذهب عني من الحياة فلا اجده حتى اذا بللني العرق وانهكني التعب عاودتني انفاسي شيئاً فشيئـاً وذهبت النوبة على ان تعود بعد ساعة او ساعتين ، ومصير مثل هذا المرض معلوم

وهو مذكور في كتب الطب لم يختلف فيه طبيبان . لا ادري أمن الموت وما انتظر من اهواله يزداد جزعي . وما تطلع عليَّ شمس يوم الاّ وزادتني قرباً من قبري . والهفي على آمال تحولت آلاماً . واحسرتي على ايام عمر ما ضحكت لي مرة الاّ جعلتُ دموعي لها ثمناً ، أهذه عاقبة الصبر التي اطلت انتظارها . ما اكثر ضلال الحكماء ، وما اكبر غشَّ القدماء ! وفي موضع آخر من شكاياته الاليمة يقول .

كلما اشكاني الزمان بكارب من صروفه عمدتُ الى هذا القلم المظلوم فاستخدمته في ترجمة شكاياتي . لقد اصبح ترجمان حسراتي بعد ان عاش زماناً وهو الشادي المطرب باحسن بديهيّاتي . ما حيلتي ؟ بذا قضت الايام ...

ودونك نموذجاً من أدبه العالي ينمُّ عن نفسه الابية وروحه الكبيرة الثائرة ضد الظلم والاعتساف الذي طالما عشق الحرية وذاد عنها بدماء قلبه يسترخص في سبيلها كل غالٍ مجابهاً الموت مبتسماً بوجهه بذلك الضمير الحرّ الحيّ مهما عصفت به عواصف استبداد عبد الحميد الهوج فلا تزعزعه عن مبدأه الصادق فيقول :

اجل اننا خاطئون ، صدق لسان الحال وشهدت التجاريب من ذا الذي يرى عدوه يغدو ويروح امام داره . ينتزعه الرصاصة بعد الرصاصة ويعلم انه لا محالة داهمه يوما اذا ضاقت به الحيل واعياه طول الاصطبار . أكنا نرجي ان نأخذ عدونا رحمة بنا . أنحن مخلصون لهذه الدولة . كلا ثم كلا . يا بعد ما بين الاخلاص وبين هذه القلوب . ان نحن الاّ اقوام اذا صفا لنا الدهر اياما فخرنا بغير فخار وادعينا ما ليس من طباعنا . أي بني بلادي . لا اكذبكم . اذا كان أغش الناس لكم احبهم اليكم ، فهذا قلم لا يعلم تلك

المسالك . يا ويل المخلص العاقل بيننا . سواء علينا صدق أم لم يصدق . أليس من فاضح الخزي ان يصبح كثير من الناس يترحمون على ايام عبد الحميد . واننا نسمعه في موضع آخر من « تجاريبه » ينقم على اولئك المتصلفين المتكبرين غاضباً هازئاً بهم وبنفوسهم الخسيسة ان يمقت هذه الرذيلة رذيلة الكبرياء التي تحط من مقام صاحبها الى دركات الذل والاحتقار والاكراه . فيقول : « التكبر ينشأ في نفس المرء من اشياء كثيرة اشدها الحمق ، ثم الاغترار بالانتقال من الضعة الى الرفعة . ثم محاولة العزة عند الناس . المتكبر ينظر الى اعطافه ويأخذ في تغيير قعوده ونهوضه ومشيه ووقوفه حتى يستضحك الناظر . لان النفس اذا خلا منها موضع الفضل وباتت الشمائل معطلة من زينة الاخلاق استمكن التكبر وبدت غرائبه . عرفت رجلاً تكبر بعد عناية اصابتهفرأيته في أحد مجالسه وما زال ينحرف في قعوده ويتلوّى في توجهه حتى انشق بنطلونه وافتر عن بياض قميصه . فكان عابساً من فوق وباسماً من تحت وكاد اهل المجلس ان يموتوا من شدة الضحك . » وأوجز الكلام عن الافاضة في سبيل حريته المعشوقة المفداة ولقد تبين لك ايها القاريء العزيز الصريح عن الرغوة من عزة نفسه وشجاعته وبسالته واندفاعه لاستقرارها والذود عن حياضها . ومتانة العبارة وجزالة الالفاظ واسلوبه السهل الممتنع . واني لانتقل بك الى حلقة ذهبية في شعره السياسي والاجتماعي الذي ينمُّ عن روحه الوثابة للعلى مناضلاً في كتاباته بما عرف من جرأة في تفكيره الصائب وآرائه الثاقبة حيث يريد الرفعة والمجد لوطنه من ظلم الظالمين ، يناجي هذا الشرق الذي طغا عليه جور الجائرين فيقول : قوله في منفاه :

لا الصبر ينفعه ولا الجزعُ   قلب يكاد شجاه يطّلعُ

يا ليل هـــذا ساهر قلق ... يرعى النجوم وقومه هجعوا
هل فيك ذو شجن يشاركني ... اشكو له مـــا بي فيستمع
سرت ِ الهموم فقمت ادفعها ... واذا هموم ليس تندفـــع
من بات تدمع عينه اسفـاً ... فـأنا فؤادي بات يدمـــع
اشفقت من دهري على املي ... واليوم انظر كيف ينقطـــع
ويـلي عليـه وهو يخدعني ... ادري حقيقته وانخــــدع
ياشرق لجَّ بك العداة هوىً ... يا شرق اغراهم بك الطمع
وبنوك قد طبعوا على خلق ... وعلى سواه الناس قد طبعوا
عاشوا يؤلف بينهم وطـن ... فتفرقوا فيـه وهم شيـع
يتفرقون عـــلى مذاهبهم ... وعـلى الاخاء الناس تجتمـع
جهـلوا فأخضعهم تعصُّبهم ... والله لو علموا لمـــا خضعوا
هنأتهم بالامس اذ نهضوا ... واليوم ارثيهم وقد خنعوا
أهديتهم ودي فمـــا قبلوا ... أَخاصتهم نصحي فمـا اتبعوا
والشيء يرخص حـين تبذله ... والشيء يغلو حـين يمتنع
أبني بلادي قـد مضت أمم ... هذا طريقهمُ الذي اشترعوا
ان تصبروا فلطالمـا صبروا ... أو تجزعوا فلشد مـا جزعوا
ابدا نعيش عـــلى مغالبة ... الدهـــر يخفضنا ونرتفـــع
أبني المسيح وأحمـد انتبهوا ... ودعوا رجالاً منكمُ هجعوا
لم يرضَ احمد والمسيح بما ... صنعوا فلا ترضوا بمـا صنعوا

وفي ختامها يقول مواصلا ثورة حريته بعزة نفس واباء وشمم ضد الطغـاة .

حتّامَ هـذا الجهل مطرّد ... والى مَ ذاك الجهل متبّـع

انّا لاقوام لنـــا همم　　للمجـد تدفعنا فنندفـــع
العمر اهون ان يضيق بنا　　والموت للاحـرار متسـع

ومن وطنياته المشبعة إباء وعزة ونصرة له قوله :

في نصرة الحق تصدق الخطب　　يا دهر فاسمع ولتشهد الكتبُ
اليوم جند الاقلام غالبـة　　لا البيض تغني عنها ولا القضب
استوثق اليأس من مواضعه　　هذي نفوس كالنـــار تلتهب
فلينهض الشرق اهل ُنجدته　　قد آن ان ينهضوا وان يثبوا
اليوم نبنيَ مـا غيرنا هدموا　　وفي غد نسترد مـــا سلبوا
لولا بلاد عرفتهـا وطنـاً　　لم اطلب المجد مثل ما طلبوا
تفديك نفسي وما يلمُّ بهـا　　يا مهـــد آبائي الألى ذهبوا
ابكيك ارثيك ما حييت وان　　مت ُّ فروحي عليك تنتحب
لا بدَّ للمجد من معـاودة　　يا مجد ُعدْ فالكرام قد طلبوا

وقد نشرت له جريدة الرائد المصري سنة ١٨٩٧ قصيدة يناجي بهـا وطنه . نجتزيء منها بعض ابيات قوله :

يبكي بنوك ويضحك الزمنُ　　مـاذا اصابك ايهـا الوطن
ما أوشكت ان تنتهي محن　　الاّ وجاءت بعدهـــا محن
اما الرسوم فانهـا درست　　اما الرجـال فـانهم دفنوا
لولا بقـايا معشر سلفـوا　　لتنبَّهت من نومهـا الفتن
العصر راجت سوق باطـله　　فالحق فيه مـا له ثمـن
يا قوم هبوا من مضاجعكم　　طال المدى حتّامَ ذا الوسن

وقد قال منددّاً بظلم عبد الحميد

يـا ليالي ماذا نرى يـا ليالي　　خير حال أريت ِ أم شرَّ حال ِ

أكذا الموالي يصبح عبيداً — اكـــذا يحكم العبيد الموالي
انّ هذا الجيل الاخير لجيل — جـــاء عاراً لسائر الأجيال

ودونك بعض ابيات في رثاء اخيه حيث يتفطر عليه حسرة وألماً قال :

ايا روح محمود عليك تحية — متى ينقضي ما بيننا زمن البعدِ
تقدمني نحو الذين تقدّموا — وكنت ارّجي ان تعيش المدى بعدي
سأبكي وابكي غدرة الموت جاهداً — على ان جهد الموت اعظم من جهدي

وقال في رثاء احد انجاله وقد مات في الخامسة عشرة :

بُنيّ لا الحظ فيك اسعدني — ولا وفى لي بـــذمة أملُ
ألسنة العيش كلهـــا كذبت — وامتاز بالصدق وحده الاجل
إن ترتحل في صباك عن سكن — انرته فالجدود قـــد رحلوا
او تتخذ من معـــاشر بدلاً — معـــاشراً لا يفيدك البـدل
الله في لوعـــة أجرّعهـــا — يعرفها في الانام من ثكلوا
يا كبداً من مناطها انفصلت — ما خلتُ انّ الاكباد تنفصل

وانتقل بك يا قارئي الكريم الى باب التهنئة والمديح ، مقدماً بعض شذرات شذية ندية زكية في ما طرقه كغيره من الشعراء في هـذا الباب ولا غرو فشاعرنا العبقري هذا لقد طرق جميع ابواب القريض من مدح وفخر وتهنئة ، ورثاء وانتقاد ، وغزل فانفتحت له على مصراعيها فكان السباق في حلبتها لعلو كعبه ليس في الشعر فقط بل في النثر كما قد بسطناه امامك على بساط الادب هذا قدر المستطاع ، حسبما قد طُلب إلينا بدمج شواهد كما يقتضيه المنهاج لهذا الدرس . وهاكم انموذجاً في هـذ الباب حيث يمدح مهنئاً سمو عباس حلمي الثاني في عودته من اوربا في ١٢ آب سنة ١٩١٢ قال رحمات الله على روحه الطيبة :

هلموا بنا نحو الامير نسلّم ... سلام على عباس مصر المعظّم
الا انّ في الاكباد شوقاً مبرحاً ... اليه فقد كادت من الشوق تدمّي
سئمنا النوى لم يبق للصبر موضع ... ومن يتجرع لوعة النأي يسأم
امولاي ان المادحين ترنموا ... بمدحك فاسمعني فهذا ترنمي
سأجزيك عن عهد الصبا شكر مخلص ... فقد جزتني فيه بالآء منعم
ومازلت من دهري بركنك احتمي ... وما زلت في فخري لمجدك انتمي
وانىّ لتسمو بي اليك سجية ... من الشعر تجري في عروقي مع الدم
فيأتيك منه كل زهر منثر ... ويأتيك منه كل درّ منظم
ويخلد للايام فيك مكررا ... يخفّ على أذن ويعذب في فم

وانه ليواصل مديحه على هذا النحو الشممي العاطفي :

وما مصر الا دولة في شبابها ... فان تبتذله في الغواية تهدم
وان لم تفق من نومها يبق نومها ... «وان لم تكرّمْ نفسها لم تكرّم»
وان لم يقومها اذا اعوج عودها ... فتى صادق في نصحه لم تقوّم
ليبق لك القلب الذي صيغ رحمة ... فمن يؤتَ منا مثل قلبك يرحم
وان يخدم الاوطان صاحب امرها ... كما تخدم الاوطان بالعين يخدم

أقدم لك بعض أبيات في الهجاء في كاتب :

كأنما يراعــه سوطـه ... يضرب إن جدّ ولا يكتبُ
لا تدع العجمة اسلوبـه ... فليس في اسلوبه معرب

وقال في آخر :

والله يا ملعون قد غظتني ... فلست ادري ما الذي اصنع
أهجوك ، انّ الهجو لي مأثم ... وقدرك الادنى به يرفع

الغزل

انتقل الى باب الغزل ذاكراً لك ومقدماً لرغبتك ايها العزيز شيئاً يسيراً من غزله الرقيق العفيف الابي منتزعاً من هذا اليم الصاخب بعض الدرر الغوالي مرصعاً بها جيد المطلعين المقبلين ، المتهافتين اليها بشغف . ولا يقلّ ولينا اليكني الاديب البارع منزلة ويضيق عن زملائه باباً بل انه يترفع به عن الاقذاع كبعض اولئك الشعراء نظير امرؤ القيس وبشار ، وابي نوّاس وغيرهم . واليك انموذجاً عاليا ينمُّ عن نفسه الابية العفيفة حيث يقول :

غيرت عهدك في الهوى فتغيرا ملك الهوى قلبي وقلبك ما درى
كوني كما انا في الغرام وفية لا تهجريني ما خلقت لاهجرا
اصبحت فيك من الولوع بغاية لو زدت حسناً لا ازيد تحيّرا
بلغ المدى بي كل شيء في الهوى فاذا اردت زيادة لن اقدرا
ماذا التخالف في المحبة بيننا نفس مكرمة ونفس تزدرى
واكاد أحسب في غرامك شقوتي لو كان يسعد عاشق بين الورى
عندي حديث ان اردت ذكرته من لي بان تصغي اليّ واذكرا
لا تنكري نظرات عيني خلسة الله قد خلق العيون لتنظرا
أرسلت طيفك في المنام يزورني فدنا وولىّ وهو يعثر بالكرى
لم يبقَ من أثر سوى تبسامة خطرت على نفس الهوى فتأثرا
لا يعذلوني في غرامك ضلّة من هام فيك فحقهُ ان يعذرا
قلبي يحسُّ وهذه عيني ترى ما حيلتي فيما يحسُّ وما يرى
ان تصبري عني فقلبك هكذا أمـــا انا فاخاف ان لا اصبرا

وقال متشكياً من غدرات الزمن :

يا غراماً في بدئه كان قطرا　　كيف أصبحت بعد ذلك مرا
لم ازل فيك اشكر الوصل حتى　　ازف البعد فاغتدى الوصل هجرا

وقال في حسناء مشبهاً اياها بشعاع الشمس اللطيف الخفيف الناعم البريء ، واخلاقها الزكية باريج الزهر :

كأنها من شعاع النفس قد خلقت　　فليس يدركها نقص ولا دنس
تزكو شمائلها في روح عاشقها　　كما زكا باريج الوردة النفسْ

وقال مناجياً القمر يبثه شوقه والتياعه :

بالله يا مصباح بيت الدجى　　ويا انيس المعشر الساهدينْ
حدّث بوجدي كل اهل الهوى　　واقرأ تحياتي على العاشقينْ

وانك لتقف من خفة ظله في موقف حبه هذا بما معناه :

مَن ذا يراك ولا يحبك　　سل ان اردت يحبك قلبك
انظر الى المرآة تعلم　　كيف انت وكيف حبك

وقال ايضاً في ما معناه :

نويت تقبيلها بالوهم من كلفٍ　　بها فأثّر في الخدين تقبيلي
ولاح من خجل في وجهها عرق　　كأنّه دمعي في طرف منديلي

وقال في حال مرضه وضجره ويأسه يأمر نفسه بالموت تخلصاً من محنه وعذابه :

مُت يا وليّ الدين مُت　　ما ثمّ من يبكيكا
ودّع حياتك هذه　　ما ذقته يكفيكا

وقال في اشتداد مرضه متبرماً متألماً :

عمرُ الشباب لقد مضيت محبباً　　وتركت لي عمراً سواك بغيضاً
أحيى وتثبتني الشقاوة كارهاً　　مثل الكتاب يكابد التبيضا

عُوّدتُ امراضي وطول تألمي حتى كأني قد وُلدتُ مريضا

ختام حياته وآثاره :

والآن ننتقل بكـايها القاريء اللبيب الى آثاره الخالدة النفيسة التي تركها لنا تراثاً مجيداً ، وادباً جماً عالياً ناضجاً ، ونهجاً صادقاً رائعاً ، ووطنية فذة مستقيمة كنفسه الابية وروحه الطيبة العالية جميعها تنمُّ عن جهاده وكفاحه وثورته الثائرة الجامحة الطاحنة المحطمة اغلال الغاشمين في سبيل الذود عن الحرية المحبوبة المفداة التي طالما تحمل واحتمل النفي والتشريد والاضطهاد والمكاره من اجلها ولاجلها . آثاره – المعلوم والمجهول – كتاب نفيس رائع تضمَّن ذكريات صباه وما اصابه من محن وشدائد وعذابات وكوارث إبان حياته كما قد تبين لنا من تاريخ حياته هذا . وفيه ما فيه من صدق اللهجة بما سال به يراعه السيال من الاندفاع الساخط والنقد اللاذع ، والنزعة السياسية في الدفاع عن الحرية والمشادات ضد ظلم الظالمين والتهجم على السلطان الطاغي الغاشم عبد الحميد ورجالات الدولة الطغاة . – الصحائف السود – هو كتاب لا يقلُّ عن سواه روعة وجمالا وهو ابيض الصفحات لتلك الحياة النبيلة الناصعة ، وهو طابع جليل آثاره الباقية الغالية ينمُّ عن طابع اخلاقه السامية ومزاياه الاخلاقية الابية وعصاميته الفذة الخلاّقة ، ضمّنه انتقادات اراد منها الاصلاح الاجتماعي كان ينشرها تباعاً في الصحف وطالما اخذت صداها البعيد وجعلت له منزلة رفيعة بين اقرانه وزملائه وفي المجتمع الوطني الاصلاحي ، بما قد عرف عنه . ومؤلف آخر يدعى « التجاريب » جميع هذه المؤلفات التي حبرها يراعه المغموس بدمائه دفاعاً عن الوطنية الصادقة الحرة ، كما تدل عليه في جميع نواحيه الاصلاحية التي

كان ينشرها على صفحات الجرائد – وله روايتان جمعتا في كتاب معاً تدعيان « ذكران ورائف » هما قصتان اجتماعيتان – ومؤلف آخر يسمى « خواطر نيازي» هذا الاخير قد نقله عن التركية الى العربية . وهو تأليف « محمد نيازي » التركي بطل الثورة التحريرية في ذلك العهد والانقلاب على عهد العصر الحميدي الظالم الدابر .

وله ديوان شعر يدعى باسمه « ديوان ولي الدين » جمعه اخوه « يوسف يكن » بعد وفاته . وهذا الديوان كما رأيناه واطلعنا عليه تماماً وتمحيصاً ، يتضمَّن من الشعر نفيسه وأجوده مطبوعاً بطابع نفسيتهِ الوثابة وروحه الثائرة ضد الظلم والاستبداد والضغط على الحرية في عصر عبدالحميد. وشعره منسجم ، صادق العاطفة والوجدان كما هو واضح بيِّن امام ناظريك من هذه الشذرات الزكية الناصعة الغالية المدمجة في تاريخ حياته هذه .

ونختم درسنا القيّم طاوين صفحة مجيدة ناصعة وناشرينها بافتخار ووقار مع روح شاعرنا الكبير وأديبنا الغالي الكاتب القدير الفنان والمجاهد الصادق لاجل نشر علم الحرية المفدّى من على قمم المجد والعزة والشهامة والنضال حيث انه تعشقها ومات لاجلها رفيعاً نبيلا شهيداً ، منحنين اجلالاً وخشوعاً أمام روحه الغالية سائلين الباري الرحمان أن يثيبه على عداد جهاده الصادق وكفاحه الحرّ النبيل وحسناته المبرورة مبلّلاً ثراه الزاكي برحماته ورضوانه.

لمحة في ادب الأمس وأدب اليوم

قبل الخوض في معترك أديبنا وكاتبنا مصطفى لطفي المنفلوطي ، علينا ان نمرّ بنظرة خاطفة في تبيان الفرق في أدب الامس وادب اليوم العصري - او بالاحرى ادب النهضة الحديثة — هذا الادب الذي المّ بهِ وما اصابه من شلل واعتلال في جسمه الادبي واقفاً في تقدّمه وازدهاره ونموّه الجميل الاصلاحي البديع الرونق والمتين المبنى والاسلوب والجمال الفني الرائق الرائع الذي يتطلبه الوعي التقدمي العلمي ، الادبي . نعم كل ذلك مما وقف في وجهه الوضاح الباسم الاشراق ، تلك الحوادث السياسية الهوجاء الدولية التي كانت من حين الى آخر يذرّ قرنها منذراً بالويل العالمي وتدمير بنـاء الامة واسس العائلة لما كان يطمح اليه الغربيون من السيطرة والتوسع وبسط النفوذ ، والجشع القتال والتطاحن على هذا الشرق المسكين الذي هو هدفهم الوحيد نظراً لموقعه الجغرافي . فيهولون عليه بالويل والثبور على (كبش المحرقة) يبتغون اقتسامه غنيمة باردة فيما بينهم . هذا مما كان يهبّ عليه بين الفينة والفينة بعد ان يكون قد استقر قراره من الراحة والطمأنينة في هذه البقعة من قطره . فما كادت الاحوال تتمركز في نصابها بين سكانه الوادعين الخلّص ،اذا بشبح الويل فاغراً فاه منذراً بالدمار والخراب لما بناه الآباء والجدود بقوّة سواعدهم وعرق جبينهم والذود بدمائهم عن حياضه واستقلاله واستقراره . كأني بـه لقمة سائغة في فم الطامع الجشع الدخيل الغاشم . تتناوبه وتنتابه العلل والامراض السياسية الفتاكة الهدامة المقوضة ، فتعاقب عليه الاطباء الكثيرون وهو بين ايديهم كالشلو يعملون في جسمه الهزيل الندي مباضعهم الحادة السنينة . هكذا كان نصيب هذا الشرق « كبش المحرقة » الوديع الذبيح في نصيبه الادبي وروعته البيانية الغنية الرائعة وعدم استقرار نصابهِ العلمي الثقافي وتقدمه الحثيث في مدارج ومعارج الآداب والنهضة الفكرية العالية فاذا جميع هـذه الحوادث العالمية العرجاء الهوجاء

تكبو في ميدانها الاثيم الاقلام الرهيفة بعد ان تكون قد حبرتها الادمغة الناضجة الثاقبة بجهود جهيد وتفان وسهر لا يتسرب اليها الملل ولا الكلل . فما كاد يصفو الجو زماناً ويحل القلم محل السيف ، وتسيطر دولتـــه الهادئة المحبّة للسلام والوئام ، وتعود سماؤه الى نقاوتها وروعتها وبهجتها متفتقـة ازهاره عن أكمامها. تعود الى الانكماش والاكتظاظ وتتلبد سماؤه متجهمة الغيوم يأسا وحزنا ، يتطاحن الانسان ضدُّ اخيه الانسان ينهشه الطمع ولو على شبر من الارض . قاتل الله الطمع المجرم — وما كاد يطل ويذرّ قرن العصر الادبي الحديث ، او النهضة الحديثة ، كما نسهيما ، في مستهل عصر العشرين الحديث الادبي الرائـــع بعد ان وضعت الحرب الغشوم الاولى اوزارها واضمحل شبحها المشؤوم المخيف . عاد جو الادب العمراني الى صفائه الرائع الرائق وعملت الاقلام الرهيفة في حقلهـا الخصيب تؤدي رسالتها السامية ، ومبادئها الصادقة ووعيها النامي ، بفضل رجال ميامين وقواد مسالمين ، لا كأولئك المغامرين الطامعين الجشعين العاملين معاولهم هدماً وخراباً ودماراً في الحقول الوطنية الخصيبة الآمنة الهادئـــة . عفوا قارئي العزيز — اني استميحك عـــذراً واستدراكاً — كان من الواجب الصوابي ان تكون هذه الديباجة في اول هذا الكتاب ديباجة له — نعم . ولكن هكذا قضت الظروف وشاءت في غير موضعها . وكانت احكامها قاهرة . على ان نعود ، ان شاء المولى المنان -- الى تنظيم ذلك « المؤلف » الضخم حسب ما تقتضيه الاصول التاريخية المنهاجية . وما هذا « المؤلف » الصغير الذي وضعناه امامك سوى شذرة او حلقة صغيرة مفصومة مقطوعة من تلك السلسلة الضخمة الذهبية كما شهد بذلك كل من طالعه ، خاصة ، طلاّب — البكالوريا — الذين كانت تلقى عليهم هذه الدروس القيمة والبذور الطيبة الخصبة ، فاعطت خمسين ، ومئة ، و ... في تلك الارض الجيدة الخصبة ...

مصطفى لطفي المنفلوطي

« ١٨٧٦ – ١٩٢٤ م »



حياته – نشأته

قام في مصاف النهضة الادبية الحديثة الواعية حملة اقلام فذّة ، ومن الادباء الذين لمع نجمهم في سماء هـذه النهضة ، وماشى زملاءه الحاملين لواءها الخفاق في اواخر الجيل التاسع عشر ، ومستهل العصر العشرين ينهضون ويقيمون ما تداعى من هيكل اللغة وتزعزع ، بهمة سواعد جبارة على انقاض ذلك الهيكل القديم . فانتصب البنيان شاهقا متيناً على فكرة رجاله الفنيين ، واعلامه العلماء العصريين ، تنظر اليه العيون برونقه الاعجابي ، وتحدجه الانظار مندهلة بشكله الرائع الهندسي ، وبراعة افكار ذويـه النجباء . اذا بنجم الادب اللآمع يتلألأ سطوعـاً واشراقاً في سمائه يسير على ضوءه الشعشاع البعيد المرمى من الساحل اللبناني التاريخي الرائع الى وادي النيل الخصيب ، فاينع الفكر البشري في ارض الفراعنة ، وكانت ثماره لذيذة يانعة فكهة يستلذ بطعمها الكوثري المجاني ، تتلقفها الايدي بلهفة واقبـال ، وطموح

وشوق تهتز لها القلوب ابتهاجاً وغبطة مرحبة برسلها الامناء الميامين المسالمين الحاملين رسالة الحق السامية الصحيحة والفكر الناضج الواعي ، الموزع جهوده الممتازة وكفاحه الحنون على ابنائه البورة المقبلين لاغتراف مجاني الآداب الناضجة ، وللارتواء من ينابيعها الغزيرة العذبة . ولقد اطلّ من معسكر إخوانه المجاهدين في هذا الميدان الفسيح الصافي الرونق ، والبهيج الديباجة الباسم الثغر ، الصافي السريرة في بلدة المنفلوط المصرية اديبنا العصري الناهض في حلبة الادب الحديث ، المتكاتف جنباً الى جنب زملائه الاحرار الصادقين في انهاض هيكل اللغة المشمخر البناء ، والمصلح العامل برفقة مجاهديه « مصطفى لطفي المنفلوطي » الذي ابتسم ثغر ميلاده الى الوجود وفي ارض الفراعنة في اواخر الجيل التاسع عشر عام — ١٨٧٦ — وهو عريق النسب . نشأ نشأة طيبة في كنف والده يرمقه بعين الحنان ساهراً عليه ، معجباً بابنه لما كان يتبينه في ملامحه من النجابة والرصانة . وكانت اسرته هذه قد انجبت عدداً من العلماء الذين احتلوا مكانة رفيعة في عالم الادب والسياسة ، وتلقن على يد ابيه العلوم مكباً عليها وطالما قد اخذ منها النصيب الوافر في بلدته حيث كان من الطلاب النجباء ، فتوسموا فيه الخير والنجاح . وادخله والده فيما بعد الجامع الازهر فأكب على العلوم الدينية واللغوية ، فأبهر الاساتذة واقرانه بذكائه ورصانته وهدوءه ورجاحة عقله . وكان يخالط رجال الادب ، ويأخذ عنهم ما تيسر لديه لانتباهه . ولا غرو من تضلعه في اللغة والفقه حيث تتلمذ للعالم الكبير الشيخ محمد عبده.

شخصيته

بعد أن انجز دراسته في الازهر ، وفي إبانه خاض ميدان الادب مطلقا

العنان ليراعه ناشرا مقالاته الراقية في الصحف لآفتا اليه الانظار من خلال ما كان يدبجه يراعه، فاذا بزملائه يتهافتون اليه معجبين بادبه الناضج وفكرته العصرية ، وآرائه الصائبة ، واسلوبه الجذاب — هكذا كان اديبنا المنفلوطي قد احصي بين مصاف ادباء عصر النهضة الحديثة . وقد ظل يوالي نشر مقالاته الضافية ، والناس تقبل اليها بلهفة . وقد اراد الحظ ان يلمع نجمه ليس فقط في جو الادب بل في الحقل السياسي العلمي . فتسنم منصباً اداريا في وزارة المعارف ، فكان الرجل العامل النشيط الساهر على نصاب الحق الاداري متابعا رسالته المزدوجة في هذين الحقلين . وما لبث ان ترك منصبه وعاد الى ميدان الادب الصرف حيث يتسع له المجال اكثر فاكثر . لان هذه بغية وامنية رجال الادب الاحرار . فكان يوالي نشر ثمار فكره اليانعة ، ونبوغه الادبي على صفحات الجرائد معالجاً بها الامراض الاجتماعية الادبية والاخلاقية باثاً فيها روح الاصلاح والتجدد والتحرر مواصلا جهاده المستقيم وكفاحه المتواصل في رسالته الادبية الحرة الابية رغم ما كان يرزح تحت اعباء الزمن الباهظة ، وما الم به من حدثانه ، وما تعاقب عليه من المصائب الشديدة العائلية . فكان الرجل الصبور الهادىء الطبع ، والحليم اللب ، والنبيل الاخلاق، يعاني أشدّ النكبات مقاوماً صروف الدهر بصبر وثبات وظل في محنه هذه الشديدة مثال الرجل الاخلاقي الى ان ادركته المنية ولم يزل بعد من الرجال الافذاذ ، والفكر الثاقب المتجدد ، الغض الشباب ، الطموح الاهاب ، والقلم الثري في الحقل الادبي الخصيب .

هكذا قد خبا نجمه المشرق في سماء الادب الغض الناضج في ريعانه رازحاً تحت أعباء المتاعب الفكرية الجهيدة والاعمال الانسانية الاصلاحية. وكانت وفاته سنة ١٩٢٤ .

ادبه

عرفنا شخصيَّة المنفلوطي وما كان ينزع اليه بما عُرف فيهِ من الاخلاق الرضية ، وما تحلَّى به من المزايا الطيبة والصفات الحسنة ، وبما كان يرمي من الاصلاح الاخلاقي العمراني والادبي في المجتمع بنشره مقالاته الضافية . وبعد ذلك قد جمع هـذه المقالات في ثلاثة اجزاء أسماها « النظرات » حقاً انهـا لنظرات ثاقبة طافحة بأدبه الجم الاخلاقي بما تحتوي من مزايا عالية اصلاحية منبثقة من ذلك الفكر الواعي الثاقب لمعالجة امراض المجتمع الوطنية الصادقة ، والسياسية الجارفة رامياً كل ذلك من ورائها التحرر من التقاليد القديمة الكتابية والاجتماعية معاً نازعاً الى الاتصال الوثيق بعرى حالات هذا العصر الناهض الى المجد والقيم .

ان المنفلوطي في أدبهِ هـذا ، انه حلقة وثيقة من سلسلة أدبائنا العصريين المجدّدين ما بين عهدين وثبوا بنهضتهم هذه المباركة ، فخلعوا ثوباً قشيباً على اللغـة الانشائية الكتابية التي كانت في ثوبها القديم المألوف في عهدها – فجاء أديبنا كحلقة جديدة في سلسلة النهضة الحديثة الادبية لافتاً اليه الانظار الى أدبه المجدّد العصري محرّراً قيودها من بعض تقاليد يسمونها السجع والتعقيد البياني اللفظي والمعنوي حيث كانوا يعنون بمثل تلك الزخارف والكتابات الممجة المستهجنة . فكان مع بعض صحب مطلقين عنانهـا من قيود الاعنات والابهام والتكلف هادفاً الى روعة المعاني القريبة المنال ، والسلسة اللفظ مستمداً حاجاته من البيئة الاجتماعية واطلاعه على ما كان يقع تحت نظره من الحياة والخبرة ، حيث كان يندّد بإخلاصهِ عـلى الحضّ من إصلاحه لاندماجه والتصاقه في المجتمع . هذا ممَّا جعله أن يتألم مع ذويه ومشاركيه

في عواطفه الرقيقة ، واختلاجات صدره العميقة في امراض أمته الادبية والاجتماعية . وسنقدم لك فيما بعد في حينه ايها الطالب النجيب من أدب المنفلوطي بعض مقتطفات ، لتطلع عن كثب وتحكم بعد الروية والامعان والتمحيص في أدبه الحديث الممتع ، وتحسّ من خلاله بروحه الطافحة بالاصلاح الخلقي ، وقلبه النابض بالعواطف الحساسة والرقة في طباعه ، ودماثة أخلاقه ، واسلوبه الجذاب ، وعباراته الكتابية الرشيقة حيث تستنشق من كتابتها الجزالة في اللفظ ، والسهولة في الفهم رغم حصر ثقافته واطلاعه الضيق على اللغات الاجنبية والالمام بها ، حيث انّ اطلاع المرء وتضلعه الواسع في سائر اللغات والمامه بها مما يزيد الافكار توسعاً ونضوجاً وتفكيراً عميقاً شاسعاً وخيالاً رائعاً ، كاولئك الزملاء الاعلام الذين قرأناهم وسبرنا غور ادبهم ومما تركوه لنا ادباً رائعاً ناطقاً بخلودهم وروائعهم الادبية العالية الغالية ، إذ عرفناهم جيداً ، فقد تبوأوا المكانة المرموقة المثلى في حلبة الادب والعلوم والتاريخ وما شاكل ... فكانوا كواكب ساطعة في سماء الادب ، وعبرا نادرة ، ودرراً خالدة في جيد الاجيال .

المنفلوطي الكاتب

ليس كل من يجري يراعه على صفحة ، يحبر المقالات الطويلة ، فيكاد يملّ من قراءتها ، فيحشوها من دماغه الجاف بالعبارات السمجة ، والمعاني الركيكة المبتذلةوالالفاظ المتقلقلة ، والنقنقات الادبية يسعده الحظ ضاحكاً له من وراء نقاب الادب فاتحاً صدره ليحله سدرة المنتهى متربعاً عرش الكتابة والبلاغة في صفوف اولئك الزملاء الأدباء القلائل الذين أصبحوا من المخجل ان يعدوا من حملة الاقلام ويلقبوا بالكتّاب المجيدين البارعين الذين

رفعوا منارة الادب الصحيح على شاطيء اللغة ليأتمّ بنورها أولئك السائرون الى محجة نور الحق ، حيث بعد انهم في الرعيل الاول من ميدانها . اذا بهم يحتلون متطفلين « متحشّرين » كراسي ابنائها البلغاء . وكما يسميهم اديبنا الكبير الفيلسوف الاجتماعي « ميخائيل نعيمه » « كويتبون » .

أجـل . انّ الادباء ينقسمون الى ثلاث طبقات . فالطبقة الاولى التي تحتل منزلتها الرفيعة المرموقة في الادب الرفيع الذي يدعى حقاً ادبا مثلا:

« كجبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمه ، وامين الريحاني ، وولي الدين يكن ، وعباس محمود العقاد ، والدكتور طه حسين ، وبولس سلامه. والطبقة الثانية التي تحتل مكانتها في الادب الانشائي المتوسط « كاديبنـا المنفلوطي وعلى غراره ... – الذي جاء اسلوبه الانشائي في الدرجة الوسطى بعد زملائه الذين شهد لهم العالم الادبي العالي الثقافي ، الناطق بسموه ومنزلته الكتابية البليغة وفصاحته البيانيـة وتراكيبه المتينة ، ودخوله المعنوي ، وذوقه الرشيق الى الآذان دون استئذان ،لا في بساطته وركاكته وحشوه بالمعاني المبتذلة ... أما اسلوب المنفلوطي الكتابي شجيّ التوقيع ، سلس العبارة ، مزخرف اللفظ جذّاب النفسية يروق النفس للنشء العصري اللين المراس ، انشاؤه مدرسي ، عاطفي الوقع ، وان كان فيه بعض العيوب والهفوات مكرر العبارات ، وهذا من عيوب الانشاء ، وضعف في مدى فكرة الكاتب وقصر باعه ، خاصة ، هناك ان كانت ثقافته محدودة ، نظير « المنفلوطي » هذا الذي نحن في صدد البيان عنه حيث لم يكن له إلمـام في بقية اللغات الاجنبية . ان هذا الحصر ممـا قد جعله ان يكون اسلوبه الكتابي وفكره محصوراً فقط في دائرة لغته ، ضيقاً قصير البـاع ولم تتجلّ براعته الكتابية الى حد بعيد ، بل كانت شهرته عارضة وأثره وقتيّ لم يتعدّ

حدود بيئته دون أمة اخرى . وقد امتاز بالاسلوب فقط ولم يتجاور حدّ الجوهر . مثلاً — كجبران ، والريحاني ، ونعيمه » الذين تعدّت ثقافتهم العالية وشهرتهم البعيدة حدود امة اخرى حيث أنهم قد كتبوا في لغات اجنبيّة ، وبالاحرى قد ترجمت مؤلفاتهم القيمــة النفيسة الى لغات أخرى عديدة ، مثلاً كمؤلفات — جبران — خاصّة كتاب « النبي » انجيله = الى اثنتين وعشرين لغة — اذن ، فلنعتبر بادبائنا الكبار الخالدين في بطون التواريخ —

والعكس ، انّ اديبنا المنفلوطي هـذا ، لم نبخسه حقّه الكتابي وقيمته الادبيّة الرائعة ومنزلته المحترمــة في عيوننا . ولكنكم تماشونني في حلبة التعريف عنه والبون الشاسع بينه وبين مَنْ ذُكر من الادباء الكبار الفلاسفة في صدد البيان هـذا عنهم — لكنّ اسلوب المنفلوطي الكتابي كان مرهف الاحساس مخلصاً برسالته الانسانية . وطالما قد عالج بنفسيته المتألمة ودرايته الاجتماعية ، وعواطفه الرقيقه جراحات المجتمع الناكئة ، وغشىّ بصيرته مما رآه يمثّل عــلى مسرح الانسانية من المشاهد الاليمة والمآسي الاخلاقية الكئيبة المفجعة . فكان يرى في المجتمع صورة الانسان المشوهة الضعيفة التي سيطرت عليها قوة الاستهتار والجور من الطبقة المستبدّة ، فكان في طبعه هذا ان سيطرت عليه مسحة التشاؤم فلا يرى في مُجتمعه غـير المآسي المفجعة والناحية الاليمة ، فلم يحسن مداواة جراح المجتمع الناكئة ، بل سيطرت على نفسيته العاطفة المؤلمة بدلاً من ان يحكّم عقله الصحيح في صبّ بلسم التفاؤل والتشجيع والصبر على المحن والبلايا بتفكيره الواسع. ونظراً لثقافته المحدودة كان سطحي التفكير ينقاد الى امياله العاطفية . وكان رجلا مخلصا لامته وعقيدته يرمي الى اصلاحها الاجتماعي الاخلاقي والسياسي خاصة لما

تسرّب اليها من الفساد والعادات الغربية الجامحة التي بثت جراثيمها القتالة في هذا الشرق ، داعياً الى التحرر والاصلاح العام من ربقة الاستعباد والاستعمار والنهضة الحرة في سبيل الحرية والانعتاق من كابوس الدخيل الغاشم الباغي.

ومما قاله عن نزعته الدينية « الاب يوحنا الفاخوري » في صدد كتابه : تاريخ الادب العربي – انّ المنفلوطي كان صادق الايمان بدينه ، ولكن الى حدّ الاستهتار بغيره من الاديان – فاقول انا بدوري واضعاً نفسي في مصاف زملائي . ان الاديب الكبير الناضج التفكير المثقف يجب ان ينزع عنه مثل هذه التقاليد البالية ، والمباديء الرجعية ، والسنن البشرية السطحية . فالدين لله ، وكلنا يجب ان نكون اخوانا في الانسانية لتحرير أمتنا من التقاليد الرثة الرجعية والخرافات النسائية العتيقة . ونعمل يداً واحدة وقلباً واحداً بنية صافية مخلصة لازدهار وعمران ونجاح واستقلال بلادنا وتحريره من النير الاجنبي الغاشم والذود عن وطننا وكياننا لاستقلالنا. بهذا التعاون الاخوي المخلص نكون عندئذٍ امة قوية متراصة البنيان ، جبارة صامدة في مهب العاصفة الهوجاء على الصمود في وجه الاعاصير الدخيلة الجارفة للاستعمار البغيض ، والآئلة الى المجد والكرامة والسؤدد واعلاء مجدنا وتدعيم إستقلالنا – شتان بينه وبين ولي الدين يكن اديبنا الكبير الخالد بتفكيره السامي، وشخصيته الفذة المحبوبة ، ونزعته الاصلاحية في توحيد الصفوف الى غاية واحدة وهدف واحد يرمي الى الاخلاص والوفاء والحب الاخوي . كما قد اشبعنا الدرس عنه في برنامجنا الدراسي قدر المستطاع – هكذا يجب ان يكون الادباء المفكرون الناضجون الاحرار في جميع اهدافهم الاصلاحية الجامعية التعاونية المثلى، والاّ يكون نصيبهم الفشل والثبور من وراء طموحهم وكتاباتهم وإصلاحاتهم ، فينهار

بناء الأمة .

وانا لم ننس من ان نعود بك ايها القاريء العزيز الى اصحاب الطبقة الثالثه من الكتاب الذين يحشرون نفوسهم يبغون من شخصيتهم ان يكونوا من عداد الكتاب المقتدرين كما وصفناهم ، ليخلع عليهم لقب « الاستذة » لمشهور وغيره « فينتفخوا عظمة وكبرياء ، وخيلاء ينظر اليهم بعين الاعجاب ويشار اليهم بالبنان ، ليقولوا عنهم : هذا هو الاستاذ الكبير فلان ... فنحولهم الى استاذنا العلاّمة « نعيمه » خالعاً عليهم بردة « الاستذة » القشيبة ولا غرو من ان يدعوهم كما جاء في مقاله المعنون : ضفادع الادب - هذا هو اديبنا المنفلوطي الكاتب كما بسطناه امامك على طاولة الدرس الادبي ، والبحث الدقيق ، فاننا نكنّ له الاحترام اللائق بمنزلته الادبية ، وكان نموذجاً مثالياً في اسلوبه الانشائي المتجدد واخلاقه الابيّة الاصلاحية ، ونفسيته التحريرية في أوج مجدها وعزها وسؤددها ، من الكتبة المجددين الذين رفعوا علم النهضة الادبية الحديثة ، فكتب له النصر في مصاف الذين سار على غرارهم مقتفياً آثارهم . ودونك الآن مما قد ترك لنا المنفلوطي من آثاره الادبية من فيض اصلاحاته التي سال مداده على يراعهِ :

آثاره

إن المنفلوطي لقد ترك لنا آثاراً قيمة جليلة من عصير ذلك الفكر الثاقب الذي طالما خرق حجب الحياة الاجتماعية ، وتألم بآلامها المبرحة ، فحلّلها تحليلاً عميقاً باسلوبه الكتابي السلس الشفاف ، وعذوبته البيانية وان كان أحياناً مملاً فاخفق في التحليق في سماء الأدب العالي ، نظير اولئك الذين ذكرناهم آنفاً ، نظراً لتعاقب المعنى وترديده كما قال فيه أحد الادباء

« يوحنا الفاخوري » كما مر عنه في صدد درسنا هذا . ولا حاجة لاستعادة البيان في هذا المعنى عنه.

هذه الآثار التي تركها للمجتمع الأدبي ، خاصة ، في مستهل شبابه الريق حيث كان ينشرها في جريدة ا« لمؤيد » من متعة موضوعاته الاجتماعية ، فلفت اليها الأبصار في ذلك العهد ، وجمعها فيما بعد في « نظراته » البالغة ثلاثة اجزاء ، عدا عن ذلك ان له بعض جولات في القريض خاضها في عنفوان شبابه ، ولكن جواده الشعري قد كبا في هذا الميدان الفسيح لانه لم يخلق له ، فحوّله الى النثر فكان له النصيب المعجب به في عالم الادب النثري كما رأينا واطلعنا على ذلك — ومن مؤلفاته ايضاً — العبرات — وهو كتاب قصصي مقالاته منها موضوعة ومنها مقتبسة من الادب الفرنسي أملاها عليه بعض معارفيه لجهله ، كما قلنا ، هذه اللغة ، وعالجها ببعض تصرف منه حيث تتغلب فيها مسحة الحزن والألم والتشاؤم ، وجاءت طبقا لحياته المتألمة مع المجتمع الانساني المتألم المضطرب بالغوغاء العالمية الجشعة . وله بعض مجموعات ادبية في الادب العربي . ومن آثاره المترجمة عن الادب الفرنسي ومساعدة بعض ذوية كما اشرنا في محله منها : كتاب = في سبيل التاج — pour la Couronne — وهو مسرحية فرنسية لفرنسوا كوبه — François Coppée— وآخر يدعى الشاعر او سيرانو دي برجراك — Cyrano de Bergerac — هي روايه شهيرة للشاعر الفرنسي ادمون روستان — Edmond Rostand — ومجدولين او تحت ظلال الزيزفون Sous les till euls — وهو كتاب روائي قصصي غرامي للاديب الفرنسي الفونس كار — Alphonse Karr — وكتاب — الفضيلة او بول وفرجيني — Paul et Verginie — وهو رواية كزميلاتها في الادب الفرنسي القصصي

المجوني للكاتب برناردان دي سان بيير — Bernardin de saint Pierre —
وانقل اليك ايها القاريء اللبيب بعض مقتطفات قيمة من اسلوبه الانشائي السلس المبنى والرقيق المعنى ، والعذب الالفاظ ، الشفاف الاسلوب ، والمتزن العبارة من بعض خواطره في الحياة المضطربة الصاخبة على مسرحها الاجتماعي — نجتزيء من مقال له اجتماعي اخلاقي حيث يخترق فيه بنظراته الثاقبة المعنوية البعيدة المدى ، وتعطش المرء الى خرق حجاب الغد من وراء بصيرته الوقادة النفّاذة واستكشافه الى ما يخبئه له ذلك الغد المحجوب وراء نقابه الكثيف الغامض ، الكثير الاماني حيث يعلل نفسه بالآمال المرتقبة — قال في صدد مقاله هذا — الغد —

عرفت اني فكرت ليلة الامس فيما اكتب اليوم . وعرفت اني آخذ الساعة بقلمي بين اناملي . وان بين يدي صحيفة بيضاء . تسوّد قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها ، ولكني لا اعلم هل يبلغ القلم مداه ، او يكبو دون غايته ، وهل استطيع ان أتمّ رسالتي هذه او يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها لاني لا اعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولان المستقبل بيد الله — الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد ، فربما كان ملكاً رحيماً وربما كان شيطاناً رجيماً . بل ربما كان سحابة سوداء اذا هبت عليها ريح باردة ، حللت أجزاءها ، وفرّقت ذراتها . فأصبحت كأنما هي عدم من الاعدام التي يسبقها وجود . الغد بحر خضم زاخر يعبُ عبابه ، وتصطخب أمواجه فما يدرك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر او الموت الاحمر . لقد غمض الغد عن العقول ودقّ شخصه عن الانظار . حتى لو انّ إنساناً رفع قدمه ليضعها في مخرجه من باب قصره لا يدري ، ايضعها على عتبة القصر أم على حافة القبر ؟

الغد صدر مملوء بالاسرار الغزار تحوم حوله البصائر وتتسقطه العقول وتستدرجه الانظار . فلا يبوح بسر من اسراره الا اذا جادت الصخرة بالماء الزلال . كاني بالغد وهو كامن في مكمنه رابض في مجثمه ، متافع بفضل ازاره ـ ينظر الى آمالنا واامانينا نظرات الهزء والسخرية . ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء ....

ثم ينتقل المنفلوطي في مقاله هذا الرائع واصفاً معدداً حياة الانسان ، وقوة عقله وذكائه الثاقب مخترقاً الغيب ببصيرته الوقادة وفنه الغريب بما أوتي من براعة وحدة ذكاء مذللاً الصعاب جانباً الآفاق البعيدة بمخترعاته العجيبة الفنية سابراً غورها الى اعماق البحار ، ضارباً في اجواءها الشاسعة ، نافذاً الىتلك القرون الخالية ، فيرى بعينه هذه الحادة البصر هاتيكالاجيال الغابرة ـ ولكنه رغم حدة ذكائه وثاقب فكره قد عجز عن اختراق حجاب هذا الغد المبهم ، وما يكنّه في باطنه ويحجبه وراء حجابه . فسقط وكبا امام عظمته لان الغيب في ضمير الله . ويقول في ختام مقاله هذا :

ايها الشبح الملثم بلثام الغيب ، هل لك ان ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لنرى صفحة واحدة من صفحات وجهك الجميل . او لا فاقترب منا قليلاً علّنا نستطيع ان نستشف خيالك من وراء هذ اللثام المسبل دوننا ، فقد طارت قلوبنا شوقاً اليك ، وذابت اكبادنا وجداً عليك ...

متابعاً قوله ، اخيراً مخاطباً غده المجهول في ضمير الخالق قائلاً :

لا لا . صُنْ سرك في صدرك ، وابق لثامك على وجهك . ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا واامانينا حتى لا تفجعنا فيها ، فتفجعنا في ارواحنا ، فانما نحن احياء بالآمال وان كانت باطلة ، وسعداء بالاماني وان كانت كاذبة . « عن كتاب النظرات »

الاربعون

اني انتقل بك يا قارئي الحبيب الى مقال له آخر رائع ، بديع الصورة، جميل الخيال حيث يستعرض بمعانيه السامية مراحل حياته واحزانه وخواطره ان يصوّر حياة الانسان فيه عارضا مستدرجاً مراحله ووقائعه في ما نظره من زمن شبابه الراحل الذاوي باكياً عليه بأسف مرير نادبا ماضيه الدابر بعد ان يصل المرء قاطعاً مراحله الى ان يصل الى قمة هرم الحياة ، فيتدرّج به رويداً رويداً منحدراً الى سفحها الآخر القاتم فيقول :

الآن وصلت الى قمة هرم الحياة، والآن بدأت انحدر في جانبه الآخر، ولا اعلم هل استطيع ان اهبط بهدوء وسكون حتى اصل الى السفح بسلام، او اعثر في طريقي عثرة تهوي بي الى المصرع الاخير هوياً . سلام عليك ايها الماضي الجميل لقد كنت ميداناً فسيحاً للآمال والاحلام . وكنا نطير في اجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين ، طيران الحمائم البيضاء في افق السماء. لا نشكو ولا نتألم ولا نضجر ولا نسأم بل لا نعتقد انّ في العالم هموماً والآماً . وكان كل شيء في نظرنا جميلاً حتى الحاجة والفاقة واحتمال اعباء الحياة واثقالها كأن كل منظر من مناظرك قد لبس ثوباً قشيباً من نسج الزهر الابيض ، فاصبح فتنة الانظار وشرك الالباب ... وكان كل ما نعالج فيك من هموم والآم أن يكون لنا مأربان من مآرب الحيـــاة ، فنظفر بأحدهما ويفوتنا الآخر، او غرضان من اغراضها ، فنصل الى القريب ونبيت دون البعيد ... سلام عليك ايها الشباب الذاهب ، وسلام عـــلى دوحتك الفتانة الغنـاء التي كنا نمرح في ظلالها مرح الظباء العفر في رملتها الوعثاء . ننظر الى السماء ، فيخيَّل الينا انها مغدى ومراح لنا والى الآفاق

البعيدة ، فيخيل الينا انها مجرى سوابقنا ومجرّ رماحنا . فكأن العالم كله مملكتنا الواسعة العظيمة التي نسيطر عليها ونتصرّف في اي اقطارها شئنا .

أبكيك يا عهد الشباب لا لاني تمتعت فيك براح أو غزل ، ولا لاني ركبت مطيتك الى لهوٍ او لعبٍ ، ولا لاني ذقت فيك العيش بارد الهواء كما يذوقه الناعمون المترفون ، بل لانك كنت الشباب وكفى ...

اما اليوم وقد بدأت اتحدّر من قمة الحياة الى جانبها الآخر ، فقد احتجب عني كل شيء ولم يبق بين يدي ما افكر فيه إلا ان اعدّ عدتي لتلك الساعة الرهيبة التي انحدر فيها الى قبري ...

ليكن ما اراده الله . وداعاً يا عهد الشباب فقد ودّعت بوداعك الحياة ، وما الحياة الا تلك الخفقات يخفقها القلب في مطلع العمر ، فاذا هدأت فقد هدأ كل شيء ، وانقضى كل شيء !

ايا عهد الشباب وكنت تندى   على افياء سرحتك السلام

وها إنني امسح القلم بخشوع في ختام حياة اديبنا المنفلوطي القدير ، المصور المبدع لحياة المجتمع ، المتفجع لآلامه المبرحة ، الرهيف الاحساس الذي عاش مكرساً يراعه في خدمة اصلاح مجتمعه ممّا ألمّ بهِ من المفاسد والاوبئة الأجنبية الدخيلة المتطفلة ذائداً عنه بيراعه الصادق وروحه الابية ، واخلاصه الوفي ، واخلاقه الرفيعة ، ووطنيته الصادقة الحرّة ، ورسالته الاجتماعية الادبية العالية داعياً الى الاتحاد والتضامن والتكاتف في انهاض البلاد الى مدارج العمران ، ومراقي الازدهار والتحرر من ربقة الاستعمار الاجنبي في سبيل الخير العام والاصلاح التام — رحمات الله على تلك الروح الوثابة الى المجد والتحرر. ومما قد تركه من الاثر العميق ، والنموذج المثالي للنشء العربي المثقف الواعي ، بما قد حبّره يراعه السيّال على صفحات الحياة

الاجتماعية الاخلاقية الراقية ، والادبية الثقافية في النهضة العصرية الحديثة -

الخاتمة

وها اني اختم كتابي هذا الادبي التـاريخي العملي العلمي مضمّناً اياه ، فاصماً من ذاك ... هذه الحلقة الذهبية من سلسلة دراسات قيّمة جامعة لدررها الغوالي كانت تلقى في سانحة اعمالي وتدريسي لصفوف البكالوريا طبقاً لمنهاج وزارة التربية الوطنية اللبنانية والفنون الجميلة في مؤلف اسميته « نيل الارب في تاريخ العرب » هـــذا المؤلف الذي بين يديك يا قارئي العزيز كديباجة من شقيقه ذاك ... فصلت كمقدمة للغاية المتوخاة تشجيعاً للهدف المنشود ، بعـد ان اطلقت عنان جوادي في ميدانه الفسيح الشاسع جائلاً جولاته البعيدة المضنكة المضنية . وطالما قد سيَّر فيـه قبلي زملائي الادباء الكبار جيادهم المطهّمة . وحسبي ذلك من المنان قدر ما يلاقي من غار الانتصار بعد الجهود والعناء والسهر سائلا زملائي الكرام ان يشملوه بعين عطفهم وعنايتهم ورعايتهم ، ويضيفوه حلقة جديدة الى سلسلة حلقات جهودهم واختباراتهم الواسعة البعيدة المرمى ، ويطووا كشحاً ان بدا لهم خلل في اية ناحية ووجهة ما ...

واني لاهيب بك ايها الطالب النجيب ، والشاب اللبيب ، والمطالع الحبيب ان تمعن النظر والفكر جيداً في هذا المؤلف الصغير « الكتيّب » الذي هو جزء يسير من ذلك الكتاب الادبي التاريخي الوافي الذي وضع خصيصاً لك للغاية المنشودة ، وتنهج النهج السوي فيه بعون الله ان شاء ،،، بيقظة وتفكير وعمل متدرجاً متخطيا في سلم الاداب الاجتماعية التاريخية الانشائية ، والاسلوب السلس ، سائراً بنشاط وهمة وامعان على آثار الجدود

الذين تقدّموك اشواطاً في هذا الميدان الشاق المترامي الاطراف ، فكتب لهم الظفر مسجلين صفحات ناصعة مجيدة للاجيال من بعدهم ، لنقتفي آثارهم الحميدة ونسير على خطاهم الرشيدة بثبات وجد وسهر واباء ، ونحمل مثلهم مشعل الحضارة والثقافة والمدنية والعمران فخورين من على قمة المجد والعزة والشمم . فيكتب عندئذ للحفدة الامجاد ما قد كتب لأولئك الكرام الخالدين في بطون التواريخ ـ فيظل صدى بعيدا يتجاوب رنينه البعيد ابداً ما بدا الملوان ، وذرّ القمران ـ

ولنخشع احتراما امام العبقرية الفذّة النيرة لهذه العبقرية النادرة الخارقة المنبثقة من مصدرها العلوي التي كتبت حروفهــا بمداد الروح العلوي ، وسجّلت سطورها الذهبيّة بنار الالهام خالدة في كتاب الالوهة والبشرية . . .

حسبي ذلك ، والله ولي التوفيق ـ

مهد الصبى

اني اثبت هذه القصيدة دامجاً إياها في خاتمة « مؤلفي » هـــذا داحضاً المزاعم الوهمية المتأرجحة في مهب الرياح الرجعية ، ودفعـاً للالتباسات القلة والاحلام الوهمية السقيمة ، تمسكاً بالمبدأ القويم وتوطيداً لدعـــائم الحقيقة الراسخة على أسس العقيدة الصوابية النيـّرة التي لن تتزعزع قط مهما صدمتها امواج العالم المادية الزائلة .

فانها هي هي ، الامس ، واليوم والغد ، كما يتَّضح للمطالع النبيه وهي:

مهد الصبى وملاعب الفتيان ... ذكرّتني بمرابع الاخوان
وأمرّ بالحلم اللذيذ توجّعـــاً ... اجثو على مهد الغرام العـاني
ابكي بقلبٍ دامـعٍ متحطمٍ ... دامٍ بسيف الدهر والحدثان
كم ذا احنّ الى الربوع تلهفـاً ... متبركاً في قبلة الجدران
وا لهفتا ! كم ذا يمضّ تألمـاً ... بُعدُ الحدين لمهجة الولهان
سأظل اذكر عهد كل حداثة ... رغم النوى القاسي على «جبران»
مهد الطفولة والحداثة والصبى ... كم ذا احنّ لمرتع الخلان
يا مهد حبّي كم احنّ تشوقاً ... إني اقبل مهد كل حنان
«غلبون» قد كفر الذين تقوّلوا ... إفكاً عليّ بمنتهى الكفران
قالوا: كفرتَ اجل. كفرتُ بهم وفي ... انجيلهم ، وابيهمِ « الروماني»
آمنتُ بالله الحقيقي ، العظيم ... العادل الوهّاب للغفران
والله اني مؤمن بالناصريّ ... وراسخ في حبه ايماني
أما هم فعلى ضلالٍ فاضحٍ ... يتمسكون بحمأة الطغيانِ
قاموا على الرب المسيح وزيفوا ... انجيله بالكذب والبهتان

زاغوا عن الحق القويم واصبحوا   في دجنة البغضاء والزيغان
ويل لكم ارعاة إسرائيل ها   ان الخراف غدت بلا رعيان
ولأنتمُ مثل القبور مليئة   نتناً وأقذاراً من الديدان
امّا بطونكم كقبرٍ طامعٍ   نهم فيحوي اجرة الانسان
من قعرها صوت اليتامى والأيامى صارخ : الويل للكهّان
تبدون بالحلل الوثيرة والحلى   تستسلمون لشهوة الابدان
تتسابقون الى الموائد والعلى   تتنعمون باطيب الالوان
وتعرضون عصائباً ومطارفاً   تتزينون بأثمن التيجان
وتطهرون ظواهراً ، احرى بكم   نقوا البواطن يا بني « حنان »
قايين ، قايين الغشوم دم الشهيد   أخيك طيّ مسامع الرحمان
هل تستطيع تهرُّباً وتنصلًا   أنى التهرّب من يد الديان
عودوا الى الانجيل في حقٍ وفي   صدق ، به تحيوا بطيب امان
وضعوه نصب عيونكم واسترشدوا   بالحق ، فيه راسخ الاركان
نور الملا والحق فيه ساطع   فامشوا به ،تحيوا مدى الازمان
من يتبع الحق السنيّ يكن له   نور الهداية ناعماً بجنان
خلفاء « قايافا وحنانٍ » الا   فاخشوا القدير مكوّن الاكوان

المؤلف

— تمّ بعون المنان —

مشتملات الكتاب

للمؤلف

نوابغ الادب
نيل الارب في تاريخ العرب « لصفوف البكالوريا »
قبائــح
فضـائح
أبونا نعّـــال
الناسكة « أمُّ بطرس » . .
نغمات الصبى
الاماليد « شعر »
مراسلات
الدمـوع
اعترافات راهبة ...
مذكراتي